تحرير
التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة

إعداد
أ.د. محمد بن عمر بن سالم بازمول
عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

N

المقدمة : ٥
مدخل.. ٨
أنواع التفسير وأفضل طرقه.. ٨
أولاً : أنواع التفسير: ٨
ثانياً : أفضل طرق التفسير ١٠
ولعرض التفسير طريقتان : ١١
المقصد الأول: التفسير الموضوعي ١٢
تعريفه : ١٢
التعريف الأول : ١٤
التعريف الثاني : ١٥
التعريف الثالث : ١٦
التعريف الرابع : ١٧
التعريف الخامس : ١٧
التعريف المختار: ١٩
أنواع التفسير الموضوعي ٢١
التفسير الموضوعي طريقة عرض و ليس طريقة تفسير ٢٤
نشأة التفسير الموضوعي ٢٧
أطوار التفسير الموضوعي : ٣٧
الموضوع التفسيري والتفسير الموضوعي.. ٣٩
محاذير في التفسير الموضوعي ٤١
= المبالغة في مكانة التفسير الموضوعي. ٤١
= الإصرار على تناول الآيات بحسب ترتيب النزول. ٤٣
= الخوف من الانجرار إلى منهج القرآنيين. ٤٤
= نسبة القصور إلى المفسرين ٤٥

= التداخل مع العلوم.. ٤٥

= إطلاق ما لا يحسن على القرآن. ٤٦

= التداخل في الموضوعات. ٤٧

خطوات التفسير الموضوعي ٤٨

الخطوة الأولى : أن يحدد الموضوع الذي يريد الكتابة فيه، ويضع عنوانه........... ٤٨

الخطوة الثانية : أن يرتب عناصر الموضوع ترتيباً متسلسلاً منطقياً، وذلك يهدف إلى إبراز كل معاني الموضوع والدلالة عليه. ٤٩

الخطوة الثالثة : إكمال عناصر الموضوع بما جاء في السنة النبوية، فإنها هي البيان لما في القرآن الكريم، وأمر الله بالرجوع إليها وأخذ ما فيها. ٤٩

الخطوة الرابعة : تفسير ما تجمع لديه من الآيات، ويعتمد في ذلك ما يحتاجه الموضوع من طرق التفسير: بالمأثور أو بالرأي بطرقه المعروفة: التحليلي أو المقارن أو الإجمالي أو اللفظي؛ وذلك لأن لكل موضوع شخصيته وآليته التي يحتاجها لتبينه وتكشف ما فيه............. ٥٠

الخطوة الخامسة : الاستعانة بعلوم القرآن وأصول التفسير تكون بحسب مقتضيات البحث في تفسير الآيات، فما يحتاج إلى ذكر سبب النزول ذكره فيه، وما يحتاج إلى بيان المناسبة ذكرها فيه، وما يحتاج إلى تقرير قواعد أصول التفسير قرره، وما يحتاج إلى بيان ناسخ ومنسوخ أورده، وهكذا، و ما لا يحتاج على ذلك فلا يتعرض له. ٥٠

الخطوة السادسة : أن يهتم في درسه بما جره إلى الكتابة في هذا الموضوع، محاولاً إبرازه وبيانه، وتنزيل الحكم عليه. وهذا هو هدف التفسير الموضوعي، فإنه يهدف إلى معالجة واقع معين من خلال بحث هذا الموضوع القرآني وإبرازه على هيئة التفسير الموضوعي. ٥١

الخطوة السابعة : إبراز هدايات القرآن الكريم في هذا الموضوع، والإجابة عن الشبهات المتعلقة به، إذ هي من أهم بواعث نشأة التفسير الموضوعي في عصرنا هذا. ٥١

المقصد الثاني : الوحدة الموضوعية للسورة ٥٢

تعريف الوحدة الموضوعية ٥٢

سور القرآن الكريم والوحدة الموضوعية فيها ٥٧

المعارضون للوحدة الموضوعية.. ٦٠

ضوابط طلب الوحدة الموضوعية للسورة ٦٦

البداية والنشأة ٦٩

الفضل والثمرة ٧٥

- أنه يبرز وجه بلاغة النظم وفصاحته.......................... ٧٥
- أن فيه اشتغالا بالقرآن الكريم وقراءته ٧٨
- أن فيه تدبرا لمعاني القرآن الكريم ٧٨
- أن فيه لفتاً للنظر في مقاصد القرآن الكريم. ٧٨
- أن فيه إبرازاً لروعة القرآن و عظمته. ٧٨

الوحدة الموضوعية للسورة والمقاصد الكلية للقرآن الكريم ٨٠

الوحدة الموضوعية وترتيب سور القرآن الكريم.......................... ٩٠

الوحدة الموضوعية ليست بتفسير ٩٨

الوحدة الموضوعية و التفسير الموضوعي ٩٩

الوحدة الموضوعية للسورة والتناسق الموضوعي والمناسبات.................١٠١

الوحدة الموضوعية والتفسير الإجمالي ١٠٩

الوحدة الموضوعية للسورة واسم السورة......................................١١١

الوحدة الموضوعية للسورة وعناصر الدرس التفسيري..........................١١٥

أمور معينة على تلمس الوحدة الموضوعية للسورة ١١٧

خطوات الوصول إلى الوحدة الموضوعية للسورة ١١٨

الخاتمة :..١٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله، نحمده، و نستعينه، و نستغفره، ونعوذ بالله، من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله r .

يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللهّ حَقّ تُقَاتِهِ وَلاَتَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنْتُم مّسْلِمُونَ

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَآءً وَاتَّقُوْا اللهَّ الَّذِيْ تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْباً

يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللهّ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً.

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أمّا بعد : فهذه دراسة بعنوان: **(تحرير التفسير الموضوعي، والوحدة الموضوعية للسورة)**، جمعتها تذكرة لي، ولأبنائي طلبة علم التفسير. وقد كسرتها على مقصدين. قدمت بين يديهما مدخلا عن أنواع التفسير وأفضل طرقه. وختمتها بخاتمة فيها أهم النتائج التي انتهت الدراسة إلى تحريرها.

وأما المقصدان فهما:

المقصد الأول

التفسير الموضوعي

فيشتمل على المطالب التالية:

تعريفه

أنواع التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي طريقة عرض و ليس طريقة تفسير

نشأة التفسير الموضوعي

الموضوع التفسيري والتفسير الموضوعي

محاذير في التفسير الموضوعي

خطوات التفسير الموضوعي

المقصد الثاني

الوحدة الموضوعية للسورة

فيشتمل على المطالب التالية:

تعريف الوحدة الموضوعية

سور القرآن الكريم والوحدة الموضوعية فيها

الوحدة الموضوعية للسورة والمقاصد الكلية للقرآن الكريم

البداية والنشأة

المعارضون للوحدة الموضوعية

الوحدة الموضوعية ليست بتفسير

الوحدة الموضوعية للسورة والمناسبات

الوحدة الموضوعية والتفسير الإجمالي

خطوات الوصول إلى الوحدة الموضوعية للسورة

الوحدة الموضوعية للسورة واسم السورة

أمور معينة على تلمس الوحدة الموضوعية للسورة

ضوابط طلب الوحدة الموضوعية للسورة

الوحدة الموضوعية للسورة وعناصر الدرس التفسيري

من المصنفات في الوحدة الموضوعية للسورة

سائلاً الله أن يرزقني فيها التوفيق للصواب، والقبول في الدنيا والآخرة.

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه : أ.د. محمد بن عمر بازمول

مدخل

أنواع التفسير وأفضل طرقه

أولاً : أنواع التفسير:

يقسم علماء التفسير وعلوم القرآن الكريم[١] التفسير إلى نوعين هما:

- التفسير بالمأثور.
- التفسير بالرأي.

أمّا التفسير بالمأثور فهو التفسير الذي لا يعتمد الرأي، والمعاني التفسيرية المذكورة فيه لا دخل للمفسر فيها برأيه.

وأمّا التفسير بالرأي فهو التفسير الذي يعتمد على رأي المفسر، والمعاني التفسيرية فيه من اجتهاد المفسر.

وتفسير القرآن الكريم بالرأي المجرد محرم، ومن أجل ذلك قسم علماء التفسير وعلوم القرآن التفسير بالرأي إلى قسمين، هما:

القسم الأول : التفسير بالرأي المحمود.

القسم الثاني : التفسير بالرأي المذموم.

والتفسير بالرأي المحمود محوره الذي يدور عليه هو التفسير بالمأثور، إذ من شروط قبوله: أن لا يعارض معارضة تضاد التفسير بالمأثور، فلا يجوز للمفسر بالرأي أن يأتي بمعنى يخالف مخالفة تضاد التفسير بالمأثور.

أمّا التفسير بالرأي غير المحمود، فهو الذي يختل فيه شرط من شروط قبوله، ومنها

---

(١) هذه القسمة تفهم من كلام المتقدمين ولم يذكروها صريحاً، ونص عليها المتأخرون ، وتفهم من كلام الشيخ الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون".

الشرط المذكور: أن لا يخالف التفسير بالمأثور مخالفة تضاد، فإذا وافقه واختل شرط آخر، صح المعنى وضعف الدليل.

والاشتغال بالتفسير بالرأي والحال أنه يخالف التفسير بالمأثور حرام، لأنه تفسير للقرآن بالرأي المجرد.

ومن الأدلة على تعين عدم مخالفة التفسير بالمأثور مخالفة تضاد، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء:١١٥).

قال مطرف بن عبد الله: سمعت مالك بن أنس يقول: إذا ذكر عنده الزائغون في الدين يقول : قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : "سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله عز وجل، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله تعالى، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا"(١).

ومعلوم أن معاني القرآن العظيم التي بينها الله في كتابه وبينها رسول الله ﷺ في سنته، وبينها صحابته y، من هذا السبيل، ومن هذه السنن، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عند آية (النساء : ١١٥)، تحت رقم (٥٩٦٩) من طريق ابن وهب عن مالك، والآجري في الشريعة (الدميجي ١/٤٠٧ – ٤٠٨، تحت رقم ٩٢)، والحلية لأبي نعيم (٣٢٤/٦)، كلاهما من طريق مطرف بن عبدالله عن مالك بنحوه، والسنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل/ (٢١٨/٢)، والسنة لأبي بكر الخلال/الشاملة (٤١٧/٣) والخطيب في شرف أصحاب الحديث/ ص٦، جميعهم من طريق ابن مهدي عن مالك. والأثر صحيح الإسناد.

ثانياً : أفضل طرق التفسير

اعلم أن أفضل طرق تفسير القرآن الكريم هي التالية[١] :

أولاً : تفسير القرآن بالقرآن، فما أجمله الله في موضع قد تجد تفسيره وبيانه في موضع آخر؛ فتفسر الآية بالآية، والقصة في موضع بموضع آخر.

ثانياً : تفسير القرآن بالسنة النبوية، فإن الرسول ^ قد بيّن القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: من الآية ٤٤)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٦٤).

ثالثاً : تفسير القرآن بقول الصحابي، فإنهم شاهدوا التنزيل، وهم أهل اللسان وأصحاب اللغة التي نزل بها القرآن مخاطباً لهم، وشاهدوا من أحوال نزول القرآن وأسبابه وقرائن ذلك، وما سمعوه ووعوه عن النبي ^ ، ما جعل لهم خصوصية في ذلك، كيف وهم اتقى الأمة قلوباً، وأشرفها نفوساً، وأصدقها لساناً، وأوعاها لباً وفهماً؟!

رابعاً : تفسير القرآن بقول التابعي، فإن لبعضهم من الخصوصية في التفسير، ما ليس لغيرهم، فمنهم من عرض القرآن على ابن عباس t ثلاث مرات يوقفه في كل مرّة عند كل آية، كمجاهد بن جبر.

خامساً : تفسير القرآن بمقتضى اللغة والاجتهاد، بالضوابط التي ذكرها العلماء في ذلك[٢] .

---

(١) استفيد ذلك من كلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة في أصول التفسير.

(٢) المقصود هنا شروط قبول التفسير بالرأي، وهي : ١) عدم مخالفة التفيسر الرأي النفسير بالمأثور مخالفة تضاد. ٢) أن يوافق سياق الآية. ٣) أن لا يؤدي إلى نصرة أقوال أهل البدع. ٤) أن لا يخرج باللفظ عن أصل معناه في اللغة. ٥) أن لا يحدث قولاً مخالفاً للشرع.

ولعرض التفسير طريقتان :

الأولى منهما: التفسير على أساس ترتيب المصحف، الذي يسمى التفسير الموضعي، حيث تفسر الآية بحسب موضعها من السورة، في المصحف.

ويسمى التفسير الترتيبي، لأن الآيات تفسر على أساس ترتيب المصحف.

والتفسير التوحيدي، لأن الآية تفسر فيه بمفردها و لا تفسر معها الآيات الأخرى في الموضوع.

والتفسير المصحفي، لأن الآيات تفسر على أساس المصحف.

ويندرج تحته طرق التفسير المعروفة:

- التفسير بالمأثور.
- التفسير بالرأي، بطرقه المعروفة، وهي:
  - التفسير التحليلي .
  - التفسير المقارن.
  - التفسير الإجمالي.
  - التفسير اللفظي.

والطريقة الثانية لعرض التفسير هي التفسير الموضوعي، حيث يعرض التفسير على أساس موضوعات القرآن الكريم، ويدرج بعضهم فيه: الوحدة الموضوعية للسورة.

فهل يصح إدخال الوحدة الموضوعية للسورة ضمن التفسير الموضوعي؟

وما حد التفسير الموضوعي؟ وما أنواعه ؟

ومن وضعه؟ وكيف نشأ؟ وما محاذيره؟ وما طريقته؟

والوحدة الموضوعية للسورة ما تعريفها؟ ومتى نشأ الكلام عنها؟

وما علاقتها بالتفسير الموضوعي؟ وما علاقتها بالمناسبات؟ وما علاقتها بالتفسير الإجمالي؟

الإجابة عن هذه الأسئلة هي موضوع الصفحات التالية.

المقصد الأول

التفسير الموضوعي

تعريفه :

التفسير الموضوعي مركب توصيفي مثل قولنا المدرسة الابتدائية، أو القرآن الكريم، أو مكة المكرمة، أو المدينة المنورة.

وعند تعريف الأسماء المركبة فإننا نأخذ كل لفظة ونبين معناها على حدة من جهة اللغة ثم من جهة الاصطلاح، ثم نذكر ما ينتج من معنى للاسم بعد التركيب.

وعليه فنبدأ بأول كلمة:

التفسير في اللغة: الكشف والبيان والتوضيح.

قال ابن فارس رحمه الله: "الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه. من ذلك الفَسْرُ، يقال: فَسَرْتُ الشَّيءَ وفسَّرتُه. والفَسْر والتَّفسِرَة: نظَر الطَّبيب إلى الماء وحُكمهُ فيه"اهـ(١).

وفي اصطلاح علوم القرآن: بيان مراد الله سبحانه وتعالى من كلامه المنزل على رسوله محمد ﷺ(٢).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٤).

(٢) للعلماء في تعريف التفسير عبارات عديدة، ورأيت تعريفه بهذا التعريف يحدد ماهيته، بدون اعتراض، والله اعلم.

والكلمة الثانية في اسم هذا العلم : (الموضوعي)؛

والموضوع في اللغة :

قال ابن فارس رحمه الله : "الواو والضاد والعين: أصلٌ واحد يدلُّ على الخَفْض للشيء وحَطِّه.

ووَضَعتُه بالأرض وضعاً، ووضَعت المرأة ولدَها. و وُضِع في تِجارته يُوضَع: خَسِر. والوضائع: قومٌ يُنقَلون من أرضٍ إلى أرضٍ يسكنون بها. الوَضيع: الرّجُل الدنِيّ. والدّابّةُ تَضَع في سَيْرِها وَضْعاً، وهو سَيْرٌ سهلٌ يخالف المرفوع.

ووَضَعَ الرّجُلُ: سار ذلك السَّير.

وذُكِرَ أنَّ الواضِعات: الإبل تأكل الخلّة.

والرجل المُوَضَّع: الذي ليس بمستحكمِ الأمر"اهـ(١).

ومنه المواضعة بمعنى الموافقة؛ إذ يجتمع أهل الاصطلاح على كلمة لمعنى يتفقون عليه(٢).

وفي الاصطلاح عرفاً : الفكرة (القضية) التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٧ - ١١٨)، باختصار.

(٢) انظر القاموس المحيط حيث قال: " والمُواضَعَةُ: المُراهَنَةُ، ومُتارَكَةُ البيعِ، والمُوافَقَةُ في الأمرِ"اهـ.

(٣) قال الجرجاني في التعريفات ص٣٠٥: " الموضوع هو محل العرض المختص به. وقيل: هو الأمر الموجود في الذهن وموضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية"اهـ، واعتمد هذا المعنى مجمع اللغة العربية انظر المعجم الوسيط مادة (وضع) (٢/ ١٠٠٤).

وعند المحدثين : الحديث المختلق[(١)].

عند الفلاسفة : المدرك[(٢)].

وفي المنطق محل العرض المختص به، يقابل الذات والمقول عنه والمحمول[(٣)].

وعند علماء التفسير الموضوعي : هو القضية التي وردت في القرآن[(٤)].

والاسم بركنيه (التفسير الموضوعي)، له عدة تعريفات، أذكر منها مايلي:

التعريف الأول :

"بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه"اهـ[(٥)].

ويلاحظ في هذا التعريف الأمور التالية:

- أنه لم يدخل ما يتعلق بالوحدة الموضوعية للسورة ضمن التفسير الموضوعي.
- أنه خص البحث بأنه في موضوع من موضوعات القرآن الكريم، وظاهر ذلك أن يخصه بالموضوعات الظاهرة، أو مقاصد القرآن

---

(١) انظر النَّوْعُ الْحَادِي وَالْعِشْرُينَ: مَعْرِفَةُ الْمَوْضُوعِ، من كتاب ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح) ص٩٨.

(٢) فهو تعيين الشيء للدلالة على شيء، والشيء الأول هو الموضوع، لفظا كان أو إشارة أو هيئة، والشيء الثاني هو المعنى الموضوع له. المعجم الفلسفي / جميل صليبا ص٨٧.

(٣) نظر التعريفات للجرجاني (موضوع). وقارن بالمعجم الوسيط مادة (وضع) (٢/ ١٠٠٤).

(٤) يدل عليه تصرفهم في ذلك.

(٥) التفسير الموضوعي للشيخ الكومي والقاسم ص٢٣ .

الكريم المعروفة، فلا يدخل في التفسير الموضوعي بحث موضوع خارج عن موضوعات القرآن الظاهرة، أو مقاصده المعروفة.

- أنه لا يدخل في التفسير الموضوعي ما اقتصر فيه على بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على سورة أو سور، كبحث العقيدة في سورة الشورى، أو في الحواميم، أو في سور العهد المكي، لأنك هنا لا تجمع أطراف الموضوع في القرآن الكريم.

التعريف الثاني :

"علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"(١).

ويلاحظ في هذا التعريف ما يلي:

- أنه جعله (علما)، وهذا يقتضي أن له مجموعة مسائل وأصول كلية متعلقة بهذه الجهة وهي التفسير الموضوعي، والوقع أنه ليس كذلك؛ إذ غاية التفسير الموضوعي أنه طريقة عرض لمعاني آيات من القرآن تتعلق بموضوع ما(٢)، وليس في ذلك أي مسائل أو أصول كلية.

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٢٠.

(٢) [إِذِ الْعِلْمُ إِذَا أُطْلِقَ، إِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ نَفْسُ الْإِدْرَاكِ، نَحْوَ قَوْلِ أَهْلِ الْمَنْطِقِ: الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرٌ وَإِمَّا تَصْدِيقٌ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْمَلَكَةُ الْمُسَمَّاةُ بِالْعَقْلِ وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ وَهُوَ مُقَابِلُ الْجَهْلِ، وَهَذَا غَيْرُ مُرَادٍ فِي عَدِّ الْعُلُومِ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِالْعِلْمِ الْمَسَائِلُ الْمَعْلُومَاتُ وَهِيَ مَطْلُوبَاتٌ خَبَرِيَّةٌ يُبَرْهَنُ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ وَهِيَ قَضَايَا كُلِّيَّةٌ، وَمَبَاحِثُ هَذَا الْعِلْمِ لَيْسَتْ بِقَضَايَا يُبَرْهَنُ عَلَيْهَا فَمَا هِيَ بِكُلِّيَّةٍ] بل غايته أنه طريقة عرض كما

=

- أنه قسم الموضوعات إلى قسمين : قضايا متحدة معنى. وقضايا متحدة غاية لا معنى. فالأول: كاليهود في القرآن الكريم. وهذا عنده هو التفسير الموضوعي الخاص، والثاني: كتفسير آيات الأحكام، ومواضيعها مختلفة. وكلها تدخل في التفسير الموضوعي، وهذا عنده هو التفسير الموضوعي العام.
- أنه لم يدخل وحدة السورة الموضوعية ضمن التفسير الموضوعي.
- أن بحث القضايا القرآنية في سورة أو سور أو في القرآن جميعه يدخل في التفسير الموضوعي. كما نبه عليه بعد التعريف .
- أنه قيد بـ (قضايا القرآن الكريم)، فكأنه – والله اعلم – يشير إلى أن التفسير الموضوعي خاص بالقضايا الظاهرة ، ومقاصد القرآن الكريم المعروفة.

التعريف الثالث :

"جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية"(١).

وفي هذا التعريف الأمور التالية:

- أنه لم يحدد بمعرف الماهية، إنما حدد بالطريقة الإجرائية للتفسير.
- أنه لم يشترط في الموضوع أنه يكون من مقاصد القرآن، بينما اشترط

=

ذكرت في الأصل وسيأتي تفصيل ذلك ضمن مطالب هذا المقصد. وانظر التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢/١).

(١) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص٧.

في تفسيرها أن يكون بحسب المقاصد القرآنية.

- أنه جعل دلالة القرآن على الموضوع إمّا أن تكون لفظاً أو حكماً، وهذا إشارة إلى أن الموضوع قد يكون مستنبطاً ومستلمحاً من القرآن الكريم، وإن لم يرد بلفظه.
- أنه لم يدخل الوحدة الموضوعية في التفسير الموضوعي.
- أنه جعل التفسير الموضوعي وكأنه آلية تفسير، والحقيقة أنه ليس كذلك.

التعريف الرابع :

"علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر"(١).

ويلاحظ في التعريف ما يلي:

- أنه جعل موضوع التفسير الموضوعي القضايا حسب المقاصد القرآنية.
- أنه أدخل الوحدة الموضوعية للسورة في التفسير الموضوعي. وهي ألصق بباب المناسبات منها بباب التفسير الموضوعي.
- أنه لم يشترط أنه يستوعب جميع القرآن الكريم في القضية الواحدة.

التعريف الخامس :

"الكشف الكلي عن مراد الله عز وجل في قضية قرآنية أو في سورة من

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي ص١٥.

القرآن بحسب الطاقة البشرية"[(١)].

وفي هذا التعريف الأمور التالية:

- أنه جعل التفسير الموضوعي آلية تفسير، لا طريقة عرض، وهذا فيه نظر؛ إذ ليس في التفسير الموضوعي كشف وبيان لمعاني الآيات، والمفسر فيه يستعين بالتفسير التحليلي والمقارن والتفسير بالمأثور والتفسير الإجمالي المدون على أساس ترتيب المصحف، وما قد يوجد فيه من تفسير آية بآية فهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن في التفسير بالمأثور!
- أنه قيد الكشف بكونه كلياً، ليخرج الكشف الموضعي بحسب ترتيب المصحف، فذاك كشف جزئي، وهذا في الموضوعي كشف كلي. وفيه نظر من جهة أن تقرير معنى الآية لابد أن يلحظ فيه المعنى المراد للآية، بحسب ما في القرآن الكريم، فالتفريق بين الكشف الكلي والجزئي من جهة المعنى لا يستقيم. وأمر آخر أنه أشعر بكونه كلياً أن التفسير الموضوعي يكون بطريقة التفسير الإجمالي، وهذا ليس بلازم و لا متعين في أن يكون كذلك، فقد يحتاج الموضوع إلى أكثر من ذلك من طرق التفسير الأخرى بالمأثور، والتحليلي، والمقارن.
- قوله : "في قضية قرآنية أو في سورة من القرآن" أدخل الوحدة

(١) منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم عرض ونقد ص٤٥.

الموضـوعية في الـسورة القرآنيـة في التفـسير الموضـوعي. وهـذا ينتقد؛ لأن المقصود في التعريف تحديد ماهية المعرف، بذكر أفراده فلا يخرج منها شيء و لا يدخل إليها ما ليس منها، والوحدة الموضوعية للسورة شيء آخر غير التفسير الموضوعي.

التعريف المختار:

الـذي يتحـرر عنـدي – والله اعلـم – في تعريـف التفسير الموضـوعي عـلى أساس الأمور التالية:

- تحديد الماهية، بذكر معرفها، المطابق لها، هو المقصود في التعريف، فإن التفسير الموضوعي طريقة عرض لمعاني الآيات في موضوع معين، وليس طريقة تفسير.
- طلب التمايز بين المصطلحات، وتحقيق المعاني؛ فإن المصطلحات [موضوعة لمعان يمتاز بعضها عن بعض باعتبار قيد يميزه عنه، وسبب إطلاقها عليها هو الاتفاق على وضعها لتلك المعاني ليحصل عند استعمالها مع أداتها إصلاح المعاني ودفع فساد التباسها بعضها ببعض](١)، وعليه؛ فإن الوحدة الموضوعية للسورة أقرب إلى باب المناسبات منها بباب التفسير الموضوعي.
- أن موضـوعات التفـسير الموضـوعي ليـست مقتـصرة عـلى الموضوعات الظاهرة، بحسب مقاصد القرآن العظيم، وهي

---

(١) من المختصر في علم الأثر للكافيجي ص١١٢.

ليست على درجة واحدة من الظهور، وليست على درجة واحدة من شمول القرآن لجميع عناصرها.

- أن للمفسر أن يستعين بطرق التفسير جميعها بما يبرز به معاني الآيات التي تتعلق بالموضوع المعين الذي يبحثه.

بملاحظة الأسس السابقة فإن التعريف الذي أراه للتفسير الموضوعي هو:

"عرض معاني آيات من القرآن الكريم تتعلق بغرض معين بحسبه".

فقولنا: "عرض معاني" أخرج كون التفسير الموضوعي طريقة تفسير، بل هو طريقة عرض.

وقولنا: "آيات من القرآن الكريم" فيه بيان أن التفسير الموضوعي يطلب فيه عرض معاني آيات، قد تكون من أول المصحف إلى آخره، وقد تكون أجمع آيات في موضوع، وقد تكون أغلب الآيات المتعلقة بالموضوع، لأن الموضوعات قد لا تكون ظاهرة، فدعوى استقصاء جميع الآيات المتعلقة بالموضوع صعبة جداً.

وقولنا : "تتعلق بغرض معين" فيه عدم اشتراط أن يكون الموضوع من الموضوعات التي لها ألفاظ ظاهرة في القرآن الكريم، أو أن يكون من مقاصد القرآن الكريم.

وقولنا : "بحسبه" أي ترتب الآيات في كل موضوع بحسبه، وتجمع بحسبه، فالموضوعات التي لها ألفاظ ظاهرة لابد من الاستقصاء فيها، والآيات التي فيها دلالة على الموضوع تذكر بحسب ما يمكن الباحث بقدر اجتهاده.

أنواع التفسير الموضوعي

الموضوع يأتي بالمعاني التالية:

الأول : الغرض الذي سيقت له السورة، فإن لكل سورة غرضاً وهدفاً، تدور آياتها لتحقيقه. وهذا هو الوحدة الموضوعية للسورة.

الثاني : ما دلت عليه الآية الكريمة، فطلب ما يتعلق بمعناها من سائر القرآن الكريم.

الثالث : ما دلت عليه اللفظة من القرآن الكريم، فطلب المعاني التي جاءت لهذه اللفظة في القرآن الكريم.

الرابع : القضية التي يطلب من القرآن ما جاء فيها، وترتب بحسبها.

فالموضوع يأتي؛ تارة فيما يتعلق بغرض السورة. وتارة فيما يتعلق بمعنى الآية . وتارة فيما يتعلق بلفظة في الآية. وتارة فيما يتعلق بقضية ما في القرآن الكريم.

وعلى أساس ذلك قسم بعضهم التفسير الموضوعي:

النوع الأول : التفسير الموضوعي الذي يتناول الوحدة الموضوعية في كل سورة.

النوع الثاني : التفسير لموضوعي الذي يتناول الآية وما جاء في معناها في القرآن الكريم.

النوع الثالث : التفسير الموضوعي الذي يتناول ألفاظ القرآن ومعانيها التي جاءت في القرآن الكريم.

النوع الرابع : التفسير الموضوعي الذي يتناول قضية وما يتعلق بها من الآيات في القرآن الكريم. وهو محل النوع المعتمد في هذه الدراسة.

وهذا التقسيم فيه نظر، إذ يشرك التفسير الموضوعي مع غيره، ويخلط حقيقته بغيره؛

لأن تطلب الغرض الذي يشكل المحور الأساس الذي يجمع أطراف مواضيع السورة، وغايتها التي ترمي إليها، هو من باب الوحدة الموضوعية في السورة، وينبغي أن

يكون هذا غير التفسير الموضوعي، الذي يطلب فيه جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين، لأن ذكر الموضوع غير تام في السورة الواحدة، ولأن كمال عناصر الموضوع، إنما يكون بجمعه من جميع السور التي تكرر فيها، بخلاف الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية؛ فالوحدة الموضوعية للسورة شيء، والتفسير الموضوعي شيء آخر.

والوحدة الموضوعية بمعنى إيجاد الغرض الذي سيقت مواضيع السورة المتشعبة من أجله، ألصق بعلم المناسبات منه بعلم التفسير الموضوعي.

ولأن تطلب معنى الآية من جميع سور القرآن الكريم هو مسلك تفسير القرآن بالقرآن، فعده من التفسير الموضوعي محل نظر.

ولأن تطلب معاني اللفظة من القرآن الكريم وما دارت عليه في جميع القرآن، هذا من باب علم الوجوه والنظائر.

وقسم صاحب (المدخل إلى التفسير الموضوعي)، التفسير الموضوعي، بناء على تقييده الموضوع في التعريف بأن يكون متحداً غاية أو معنى إلى قسمين:

القسم الأول (التفسير الموضوعي الخاص): الذي يقوم على اتحاد المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة، كموضوع (اليهود في القرآن الكريم).

القسم الثاني (التفسير الموضوعي العام): الذي بين أفراد موضوعه وحدة في الغاية فقط، وليس في أصل المعنى، كتفسير آيات الأحكام، ومواضيعها مختلفة[١].

وهذا التقسيم فيه نظر؛ إذ يدخل علوم أخرى في التفسير الموضوعي، فهو يدخل علم تفسير آيات ألأحكام في التفسير الموضوعي، ويدخل علم الآيات المشكلة في التفسير الموضوعي، وقس على هذا، لأنها متحدة غاية، وهذا لا يناسب طلب التمايز بين التفسير لموضوعي وغيره من العلوم. ويمكن القول بأن التفسير الموضوعي نوعان، عام وخاص،

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٢٥.

بغير المعنى الذي بني عليه التقسيم لسابق؛

بأن يكون المراد بالعام ما تعلق بالموضوعات العامة الكبرى في القرآن العظيم، كموضوع (محاور القرآن العظيم)، أو موضوع العبادات في القرآن الكريم، أو موضوع المعاملات في القرآن الكريم، ونحو ذلك.

والمراد بالخاص الموضوعات التي لا يندرج تحتها أفراد كبيرة، كالصلاة في القرآن، والتقوى في القرآن .

وقسمه باعتبار طوله وقصره إلى ثلاثة أنواع :

القسم الأول : التفسير الموضوعي الوجيز. ما يختار فيه أجمع الآيات لإنشاء خطبة أو محاضرة.

القسم الثاني : التفسير الموضوعي الوسيط . ما يختار فيه الآيات التي تشكل فكرة الموضوع وتوضح عناصره بدون استيعاب لجميع الآيات.

القسم الثالث : التفسير الموضوعي البسيط، الذي يستقري فيه الباحث جميع الآيات المتعلقة بالموضوع، ويوردها مع بيان معانيها وما يتعلق بها، في محلها من عناصر الموضوع(١).

وهذا التقسيم لا يتعارض مع التعريف المختار فيما سبق في الموضوعات ذات الألفاظ الظاهرة.

ويمكن تقسيمه باعتبار ظهور موضوعه وعدمه؛ فما كان موضوعه قضية ظاهرة بألفاظها في القرآن الكريم فهو تفسير موضوعي صريح.

وما كان موضوعه ليس له لفظ ظاهر، وإنما يستنبط استنباطاً فهو تفسير موضوعي غير صريح(٢).

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٢٦ – ٢٧.

(٢) انظر المطلب المتعلق بالموضوع التفسيري والتفسير الموضوعي.

التفسير الموضوعي طريقة عرض و ليس طريقة تفسير

حينما نذكر طرق التفسير نقول :

التفسير إما أن يكون بالرواية وإمّا أن يكون بالدراية.

والتفسير بالرواية هو ما يسمى بالتفسير بالمأثور، الذي يقتصر فيه دور المفسر على نقل المعاني الواردة في تفسير الآية إمّا من آية ثانية، أو من حديث، أو من قول صحابي أو من قول تابعي اتفقوا عليه. فلا رأي و لا اجتهاد في التفسير النقلي المأثور.

والتفسير بالدراية هو ما سمي بالتفسير بالرأي، حيث يعمل المفسر رأيه في استجلاء معاني الآية، مصطبغاً في ذلك بشخصيته العلمية، فالنحوي يأتي تفسيره مهتماً بالنحو، والفقيه يأتي تفسيره مصطبغاً بالفقه، والصوفي يأتي تفسيره متابعاً للإشارات والرمزيات وهكذا، فهو تفسير عقلي، يتوقف قبوله على شروط قبول التفسير بالرأي.

ونقول : أفضل طرق التفسير :

تفسير القرآن بالقرآن والسنة.

فإن لم نجد، طلبنا تفسير الصحابة.

فإن لم نجد نظرنا فيما اتفق عليه كلام التابعين .

وإلا فسرنا بحسب مقتضى اللغة مع مراعاة شروط قبول التفسير بالرأي.

وفي التفسير الموضوعي نرجع في تفسير آيات الموضوع إلى كتب التفسير المعتادة المرتبة على أساس ترتيب المصحف، ونأخذ منها معاني الآيات المتعلقة

بالموضوع؛ فالتفسير الموضوعي ليس آلية تفسير أو طريقة تفسير.

وحقيقة الوضع أن التفسير الموضوعي طريقة لعرض معاني القرآن الكريم لا باعتبار الترتيب إنما باعتبار الموضوع.

ولذلك قلنا في تعريفه : "عرض معاني آيات من القرآن الكريم تتعلق بغرض معين بحسبه".

ويتأكد هذا إذا علمنا : أن هذه الطريقة في عرض معاني القرآن الكريم، نشأت في أحضان رجال الدعوة بالجامعة الأزهرية .

تنبيه :

ليس من مقصود التفسير الموضوعي تفسير الآيات المتعلقة بالموضوع، بل مقصوده توظيف معاني الآية المتعلقة بالموضوع وكلام المفسرين فيها لإبراز الموضوع وتتميم عناصره.

وما نراه من بعضهم إذا ما كتب تفسيراً موضوعياً فسر الآيات، ونقل كلام المفسرين فيها، بدون اقتصار على الموضوع ودلالة الآية فيه، لا يمثل المقصود؛ فيعرض الموضوع القرآني بطريقة لا تتناسب مع بهجة القرآن العظيم وبهاء معانيه.

وعلى الكاتب في التفسير الموضوعي أن يمر على تفسير الآية المتعلقة بعنصر من عناصر الموضوع القرآني، في كتب التفاسير، ويوظف معاني الآية وكلام المفسرين فيها في خدمة الموضوع ، فيسبك بعبارته الجانب الذي تتعلق به الآية من الموضوع، و لا شأن له بغير ذلك، حتى لا يتشتت الموضوع، وتذهب روعته، ويضيع المراد في خضم قضايا تعتبر جانبيه بالنسبة للموضوع القرآني الذي هو بصدده.

والأصل أن يكتفي في كلامه بالتفسير الإجمالي للآيات، فإذا اقتضى المقام ما يبرز دلالة الآية على الموضوع من طريقة التفسير التحليلي أو المقارن، سلكه، وإذا احتاج لإبراز دلالة الآية في الموضوع إلى الوقوف عند أسلوب بلاغي أو تركيب نحوي، وقف عنده وأبرزه، وكذا عند اقتضاء المقام غير ذلك.

و لذلك ظن بعض الناس : أن التفسير الموضوعي يحتاج إلى عبارات إنشائية وبلاغية يحلق فيها الكاتب، وهذا ليس بصحيح، إنما المقصود أن يصوغ الكاتب ما يحتاجه من معاني الآية وكلام المفسرين فيها بعبارته ما يبرز الموضوع القرآني الذي هو بصدده، فهذا هو محل الإنشاء، لا أن يحلق الكاتب بعيداً في عبارته، وينوع الأساليب البلاغية بما يجعل كتابته بعيدة عن سمة العلم التفسيري الرصين.

نشأة التفسير الموضوعي

أزعم أن التفسير الموضوعي ليس بجديد في تناوله، لكنه جديد في تسميته؛

فهو موجود في تفسير القرآن العظيم بالرأي بطرقه الأربعة؛ فإن المفسر يفسر الآية بمراعاة موضوع الآية في القرآن جميعه، وإلا رُدّ تفسيره؛

ففي التفسير بالمأثور أوضح ما يكون في تفسير القرآن بالقرآن .

وفي التفسير بالرأي يظهر ذلك من خلال اشتراط أن لا يخالف التفسير بالرأي التفسير بالمأثور مخالفة تضاد، فإن إعمال هذا الشرط لا يكون إلا بملاحظة أن لا يأتي بمعنى يخل بمعنى الآية مع أي آية في القرآن الكريم.

وموجود في ذهن العالم الشرعي المجتهد، لأنه لا يستطيع أن يجتهد في نازلة إلا بعد إجالته نظره في ما يتعلق بها في الشرع، وأول ذلك في القرآن العظيم والسنة النبوية، بحيث يبين ما أداه إليه اجتهاده فيها يتعلق بالنازلة.

وموجود في رد المحكم على المتشابه؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:٧)، ففي القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب. وآيات متشابهات، وفي وصف المحكمات بأنهن أم الكتاب بيان أن غيرها من الآيات يرد عليها، فترد الآيات المتشابهات على المحكمات، وهذا فيه رد آيات على آيات، من أول المصحف إلى آخره، فأي آية من المتشابه في موضوع ترد على الآيات

المحكمات في الموضوع نفسه، لتفسيرها والوقوف على معانيها المرادة شرعاً، وهذه صورة التفسير الموضوعي.

وهو موجود في ما أفرده العلماء من مصنفات تتعلق بموضوعات القرآن الكريم، بل جاءت بعض التصانيف لأهل العلم متطابقة مع التفسير الموضوعي، من ذلك:

- الصبر في القرآن الكريم.
- الجهاد في القرآن الكريم.
- الصلاة في القرآن الكريم.

بل لا تكاد تذكر موضوعا شرعياً إلا وتجد فيها مصنفاً مفرداً اعتمد فيه صاحبه على جمع الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع.

وهذا أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت ٣٢١هـ) رحمه الله، يصنف كتابه "أحكام القرآن الكريم"، ويرتبه على أساس الموضوعات، لا على ترتيب سور القرآن العظيم.

وجاءت عبارة صريحة لابن العربي المالكي رحمه الله وهو من علماء القرن السادس الهجري، في ذكر ترتيب تفسير القرآن الكريم على الموضوعات، لا على ترتيب السور في المصحف، وأنه للعلماء.

قال ابن العربي (ت٥٤٣هـ) رحمه الله: "إنا كنا أملينا في القرآن كما قدمنا كتاباً موعباً : (أنوار الفجر في مجالس الذكر) قريباً من عشرين ألف ورقة، في نحو من عشرين عاماً، ولكنه لم ينضبط للخلق، وإنما حصّل كل واحد منهم جزءاً دون

جزء، وفي وقت دون وقت، بحسب الفشل والنشاط، و على قدر عدم العوائق.

أمّا أنه قد تحصّل منه (أسماء الله تعالى) في أربعمائة ورقة، ويحصل منه كتاب (النبي ^ في أسمائه ومعجزاته وجمل من أخباره)، في نحو من ألفي ورقة، وكتاب (المشكلين من القرآن والحديث)، ألف ورقة وخمسمائة ورقة، رؤوس مسائله في كتاب (الأفعال) من (الأمد)، وتحصل منه مختصر الأحكام في ألف ورقة، فإذا وقفتم على هذه المجموعات، كنتم قد حصلتم كثيراً، وقد كان يمكن ما ذكرت، ولكن وقفت عند مقام ترددت فيه:

وهو أنه هل يصنف على السور؟

أو على الأبواب كما رتب الحديث على المسند؟

أو على تصنيف فيجعل من أسماء الصحابة مسنداً؟

أو على العبادات والبيوع والنكاح مبوباً؟

فإذا رتب تفسير القرآن على الأبواب كان للعلماء.

وإذا رتب على السور كان لكافة الناس، لكنه يعرض فيه التكرار، ويعسر ضبطه على المؤلف، وفهمه على القارئ، فإن المعنى يكون في سورة كاملة، ويكون في أخرى مفترقاً أجزاؤه على السور، فيفتقر إلى مزيد ضبط، ويتسع فيه الخرق، لأنك إذا شرحت في كل موضع - وهو الحق – فإن الله لمّا كرره مطلقاً، كرره أنت أيضاً مطلقا، وإذا كرره مقيداً كرره أيضاً أنت مقيداً، يأتيك منه نشر يملأ الأفق، وإن اختصرت وأشرت، لم تبلغ رضا من سألك، و لا مهدت السبيل لمن

سلك"اهـ[١].

وجاء في كلام الشاطبي (ت٧٩٠هـ) رحمه الله، إشارات تدل على ما اصطلح في تسميته بالتفسير الموضوعي، حيث قال: "المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم: الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها؛

فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده؛

فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه لا بحسب مقصود المتكلم.

فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد فعليه بالتعبد به، وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب التنزيل فإنها تبين كثيرا من المواضع التي يختلف مغزاها على الناظر"اهـ[٢].

وقد ذكر ذلك تمهيداً للكلام عن الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة.

---

(١) قانون التأويل ص٦٥٥ – ٦٥٦.

(٢) الموافقات (٤١٣/٣-٤١٤دراز)،(٤/ ٢٦٦ مشهور).

والذي قاد العلماء في العصور المتأخرة إلى الكتابة بهذه الطريقة في عرض موضوعات القرآن الكريم ؛ لأنها الأقرب في التخاطب مع غير المسلمين في أوروبا وغيرها، ولأن المستشرقين وأصحاب الاتجاهات المنحرفة في دعوتهم للإسلام، كثرت شبهاتهم وطعونهم في تشريعات الدين، وفي أساليب القرآن العظيم، مما احتيج معه إلى إفراد كل موضوع بالدرس.

ورأى الدعاة الحاجة ماسة إلى التماس هدايات القرآن الكريم في ذلك؛ فتوجهوا إلى القرآن الكريم في كل موضوع يطرق، و لا حظوا تكرار الآيات التي تتعرض لقضية ما، وكان هذا التكرار من أسباب الطعن في القرآن العظيم.

فلماذا تكرر في القرآن الآيات التي تحدثت عن الطلاق؟

لماذا تكررت الآيات التي تحدثت عن العلم؟

لماذا جاء الحديث عن هذا الموضوع في هذه السورة؟ وما علاقته بسائر مواضيع السورة؟

أليس أفضل طريقة للرد على المبطلين الطاعنين في الدين هي جمع هذه الآيات المتعلقة بموضوع واحد والنظر في تفسيرها، واستخراج هدايات القرآن العظيم في الموضوع؟!

أليس في القرآن الكريم علاج المشكلات التي تواجهها المجتمعات وتعاني منها الأمم، ويحتاج إلى معرفته الناس في حياتهم؟!

وجاءت مدرسة التفسير العقلي في أوائل القرن الماضي، المتمثلة في تفسير المنار؛ والتي تبنت موقف التقريب بين الإسلام والغرب، وكانت على إطلاع

بالأعمال الاستشراقية[١]، حيث تساءل بعضهم عن ما تميز به الدرس التفسيري من استحضار الآيات المتعلقة بموضوع الآية، فأجاب السيد الإمام محمد رشيد رضا، أنه كان يعتمد على كتاب يرتب القرآن على أساس الموضوعات، وهو الكتاب الذي ترجمه الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي، لجول لابوم[٢].

واعتمد المستشرقون هذه الطريقة في ترتيب القرآن لأنه صعب عليهم مراجعة القرآن على ترتيب المصحف، ولأنهم تعودوا في التوراة والإنجيل على الموضوعات، فقاموا بعملين:

الأول : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

الثاني : تفصيل آيات القرآن الحكيم، الذي رتب القرآن على الموضوعات.

فوضع [جول لابوم معجم (تفصيل آيات القرآن الكريم).

ووضعت معاجم الألفاظ القرآنية، مثل المعجم المفهرس الذي وضعه المستشرق الألماني فلوجل (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) وطبع لأول مرة في ١٨٤٢م.

و(دليل القرآن) الذي وضعه مالير.

وكان حافز المستشرقين إلى اعتماد هذه الطريقة هو محاولة فهم القرآن بشكل أقرب إلى طريقة تفكيرهم[٣]، إذ عسر عليهم فهم التركيب القرآني بترتيبه

---

(١) التي عملها يهدف إلى أمرين: الأول : تسهيل الغزو الفكري الثقافي للمسلمين. الثاني: الطعن في الإسلام، وبث الشبه والسموم، بصبغة علمية.

(٢) انظر ما ذكره الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي في مقدمة طبعة تفصيل آيات القرآن الحكيم، عن ذلك.

(٣) كذا قال الدكتور سامر الرشواني غفر الله له، والذي يظهر أنهم لم يكونوا يسعون إلى فهم القرآن بهذه =

التوقيفي، فكان لزاما عليهم أن يتجاوزوا هذا الترتيب ويبحثوا عما يقوله هذا الكتاب في مواضيع معينة بغض النظر عن ترتيبه. لهذا كانوا أول من قام بتصنيف القرآن موضوعيا بعد أن فشلوا في القيام بترتيب تاريخي لآياته، ولكنهم حافظوا مع ذلك على الاهتمام التاريخي مساوقاً المنهجَ الموضوعي.

فمن أولى الدراسات القرآنية الموضوعية الدراسة التي نشرها المستشرق الهولندي فت (١٨١٤-١٨٩٥م) في مجلة الدليل الهولندية عام ١٨٤٥ بعنوان: محمد والقرآن، وركز فيها على العلاقة بين الديانات كما تبدو في القرآن الكريم.

أعقب هذه الدراسة دراسات كثيرة في مجال العقائد والديانات.

وعند ترجمته للقرآن -والترجمة تفسير في نهاية الأمر- حاول رودي باريت أن يطبق هذا المنهج الموضوعي الذي دعا إليه. فقد حرص -من أجل أن يفهم القرآن بمعناه الأصلي كما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم آنذاك بعد نزوله وكما أراد له أن يفهم- على الاستعانة بالقرآن نفسه في تفسير نصوصه، حيث جمع لكل آية وفقرة ما يتعلق بها أو يجاريها وورد ذكره في مواضع أخرى، ثم قارن التعبيرات المتشابهة والمتباينة ببعضها. ولذلك يعد باريت نفسه أول من طبق طريقة جمع الحجج القرآنية، ثم الاستفادة منها ليس فقط في شرح بعض المواضع، بل بانتظام

=

المعاجم، إنما كانوا يسعون إلى تسهيل تناولهم لآيات القرآن في دراساتهم الاستشراقية، بالروح التنصيرية، التي تهدف إلى بث الشبه والطعون في الإسلام ومصادره التشريعية: القرآن العظيم، والسنة النبوية، وهم قد صنعوا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وضعه فنسنك الهولندي، لهذا الغرض.

في ترجمة القرآن كله، وفي أي دراسة جدية للنصوص القرآنية ينبغي القيام بها][1].

وكان من تلاميذ مدرسة المنار، أصحاب موجة التجديد المتلفع بعباءة الدرس الأدبي للقرآن الكريم، المستمد من فكر الغرب ومنهاجهم، التي اشتعل أوارها في أول هذا القرن، فكانت تتساءل لم لا يدرس القرآن على أساس نفسي واجتماعي تجمع فيه أطراف الموضوع من أوله وآخره وأوسطه في محل واحد، وينظر فيها بدراسة خاصة قريبة من القرآن، ودراسة عامة حول القرآن، من جهة البيئة المادية والمعنوية، وهكذا كل موضوعات القرآن الكريم.

قالوا ذلك تأثراً بمدارس الاستشراق، التي أعيتها عجمتها وبعدها عن الدين أن تتعلم القرآن على نسقه وترتيبه.

وظهرت الدعوة إلى هذا المصطلح: (التفسير الموضوعي)، بوضوح على يد الأستاذ أمين الخولي (ت١٩٦٦م)، الذي حمل راية التجديد الديني، متأثراً بمدرسة شيخه رشيد رضا والمنار، فهو يسعى إلى أن يخلص الحياة من ضائقتها الدينية، التي كان المثقفون في ذلك الوقت يستشعرونها في مواجهة الإسلام مع الغرب، كما هي مدرسة المنار، مع حملات من لا يعرفون حقيقة الإسلام وصلاحيته للحياة، واستجابته لأبعد ما تطمح من تقدم وانطلاق ورقي[2].

وكان الأستاذ الخولي تلميذاً لمدرسة محمد عبده ذات المنهج العقلي، المتأثرة

---

(١) ما بين معقوفتين مستفاد من كتاب منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم عرض ونقد. للدكتور. سامر رشواني من ص١٠٠ – ١٠٢.

(٢) انظر تجديد الفكر الديني عند الأستاذ أمين الخولي رحمه الله.

http://www.arabegyfriends.com/vb/t٨٢١١٨.html

بالمناهج الفكرية الاستشراقية إعجاباً ورضا[١]، خاصة وأنه قضى من حياته خمس سنوات، بين روما (إيطاليا) وبين ألمانيا، أتقن فيها اللغة الألمانية والإيطالية، ولا يستبعد وقوفه على هذه الدراسات، التي أدته إلى أن يجدد في نهج الدرس الأدبي للقرآن العظيم؛ اقترح فيه دراسة القرآن الكريم موضوعاً موضوعاً، بخطوات يلم فيها بدراسة ألفاظ القرآن وأثرها النفسي، ملاحظاً البيئة التي نزل فيها[٢].

واحتضن الأزهر التفسير الموضوعي .

ودخل في المنهج الجامعي في سبعينيات القرن العشرين في جامعة الأزهر وغيرها من الجامعات الإسلامية، فوظِّف في مجال الدعوة الإسلامية باعتباره أوفق بأسلوب العصر، وعلاج مشكلاته وقضاياه[٣].

وأول رسالة علمية في الموضوع كانت لمحمد محمود حجازي، ونوقشت عام ١٩٦٨م[٤]. بعنوان: "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم"، وقرر فيها أن

---

(١) و لا تنس أنه هو المشرف على رسالة القصص القرآني لمحمد خلف الله، والتي ردها الأزهر لأنها جاءت بالكفر، إذ زعم أن القصص القرآني هو مجرد أمثال، لا حقيقة و لا واقع تاريخي له، وهذه الفكرة نفسها التي جاءت عند طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي، وكان الأستاذ أمين الخولي يدافع عن الرسالة ومحتواها.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية (٥/٣٦٥ – ٣٧٤).

(٣) انظر (التفسير الموضوعي) للدكتور سامر الرشواني :

http://www.moslimonline.com/?page=artical&id=٤٩٣٧

(٤) تاريخ المناقشة ١٥/٤/١٩٦٨م، بإشراف : أ.د أحمد السيد الكومي، المناقشون: أ.د أحمد السيد الكومي، أ.د محمد محمد أبو زهو، أ.د محمد على أبو الروس. انظر:

http://www.hadielislam.com/arabic/index.php?pg=rasael٢%Fresala&id=٢٣٦٤

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، لها الدعامات التالية:

الأولى : تكرار الموضوع الواحد في القرآن.

الدعامة الثانية : ذكر الموضوع غير تام في السورة .

الدعامة الثالثة : كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها من جميع السور التي تكرر فيها الموضوع .

الدعامة الرابعة : عدم كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورة ذكر فيها الموضوع .

وانتهى إلى أمور منها أن :

١ - التفسير الموضوعي هو التفسير الذي يجب أن يسود في هذا العصر.

٢ - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم بمعنى أن كل موضوع ذكر متناثرا في عدة سور يكون وحدة تامة كاملة لا تنافي فيها.

٣- كل سورة لها هدف وغرض تسعى لتحقيقه.

وذكر أن الذي بعثه إلى دراسة الموضوع وقاده إلى هذه النتيجة : "الحق أن هذا الموضوع يدور في خلدي ورأيت بعض العلماء يتكلمون عن هذا التكرار في بعض الجزئيات وتمنيت من صميم قلبي لو تتاح مثل هذه الدراسة لي أو لغيري المهم أننا نكشف الغطاء ولو بعض الشيء من زاوية حتى يرى جلال الله في كتابه الكريم ونقدم لونا من ألوان الإعجاز"اهـ.

وجاءت بعد ذلك :

رسالة التفسير الموضوعي للأستاذ الدكتور. أحمد سيد الكومي[١] والأستاذ الدكتور. محمد أحمد يوسف القاسم.

ومن ثم رسالة للأستاذ الدكتور. عبدالستار فتح الله سعيد.

ثم تتابعت المصنفات في التقعيد لهذا العلم وتأصيله.

فهو جديد في اصطلاح التسمية والعرض والتقعيد، قديم في التناول .

أطوار مصطلح (التفسير الموضوعي) :

ومرّ هذا المصطلح (التفسير الموضوعي) من حين ظهوره في بداية القرن الرابع عشر الهجري بثلاثة أطوار:

الطور الأول : التفسير الموضوعي المتأثر بالدرس الأدبي البلاغي للقرآن العظيم. حيث يمثل هذا الطور الأستاذ أمين الخولي في تقعيده، والذي أثر في اتخاذ العبارة الأدبية عند الكتابة في التفسير الموضوعي.

الطور الثاني : التفسير الموضوعي المتأثر بالدرس الدعوي الاجتماعي، وذلك تأثراً بالأقسام التي احتضنته في بداياته، وتراه بوضوح في بعض كتابات بعض مشاهير دعاة العصر كما عند الشيخ محمد البهي، والشيخ محمد الغزالي السقا[٢] ، والشيخ

---

(١) وهو المشرف على رسالة "الوحدة الموضوعية" لمحمد محمود حجازي، التي نال به شهادة (الدكتوراه).

(٢) وذلك في كتابه (نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم)، ونحى فيه نحو التفسير الموضوعي للسورة: الوحدة الموضوعية للسورة، مع الربط بين معانيها، وهو قد عدّ هذا من التفسير الموضوعي بجانب النوع الآخر الذي [يتتبع المعنى الواحد في طول القرآن وعرضه، وحشده في سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس]، فيقول في مقدمة كتابه، نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم: "هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، سبق أن قدمت نماذج لها في بعض ما كتبت. وقد لازمني شعور

=

يوسف القرضاوي[1] .

الطور الثالث : التفسير الموضوعي، المتأثر بتخصص التفسير العلمي، حيث بدأت أقسام التفسير تتناوله، بصورة عميقة، وتقعد له، وجعلته ميداناً للتفسير التحليلي والمقارن والاجتماعي والإجمالي والمأثور.

وبسبب عدم ملاحظة هذه الأطوار اضطربت كلمات المصنفين عند التعريف بالتفسير الموضوعي، و عند ذكرهم طريقة وخطوات التفسير الموضوعي.

=

بالقصور وأنا أمضي فيها، فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلي، ولكني حرصت على أن أزداد فقها في القرآن وتدبرا لمعانيه. والهدف الذي سعيت إليه أن أقدم تفسيرا موضوعياً لكل سورة من الكتاب العزيز .والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي: الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام. أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لأخرها، وآخرها تصديقا لأولها. ولقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثرت قضاياها. وأنبه إلى أن هذا التفسير الموضوعي لا يغني أبدا عن التفسير الموضعي بل هو تكميل له وجهد يضم إلى جهوده المقدورة. وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعي لم أتعرض له، وهو تتبع المعنى الواحد في طول القرآن وعرضه، وحشده في سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس. وقد قدمت نماذج لهذا التفسير في كتابي " المحاور الخمسة للقرآن الكريم" و"نظرات في القرآن" ولا ريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر، بل يري البعض أن المستقبل لها! والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وجعله هدى لأولى الألباب، وحصنه من الخطأ ومحضه للصواب"اهـ.

(١) في كتابه: "الصبر في القرآن الكريم".

الموضوع التفسيري والتفسير الموضوعي

الموضوعات القرآنية على أقسام:

موضوعات غطى القرآن الكريم كل أو أغلب عناصرها.

وموضوعات غطى القرآن الكريم شطر عناصرها وأكملت السنة النبوية الباقي.

وموضوعات أصّلها وشيء من عناصرها في القرآن الكريم فقط، وباقي عناصرها في السنة.

والقضايا القرآنية على مستويين من الظهور وعدمه:

المستوى الأول: قضايا ظاهرة باسمها ولها مفرداتها التي تدل عليها في القرآن الكريم، كالصلاة والزكاة والإيمان والأنبياء، والكفر، والطاغوت، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسحر، والأيام، والآخرة، والدنيا، والعلم، والجهاد، ونحوها.

المستوى الثاني: قضايا غير ظاهرة، فلا اسم لها في القرآن، ولا مفردات شائعة تدل عليها، مثل: قضية البطالة، قضية الشجاعة الأدبية، قضية الرهاب الاجتماعي، قضية صراع الحضارات، قضية هيمنة الدول الاستعمارية، انفصام الشخصية.

ومن سمات المستوى الأول ظهور الأفكار، وسهولة جمع الآيات وحصرها، واستقرائها، والقدرة على ترتيب الموضوع بطريقة قريبة ميسرة.

ومن سمات المستوى الثاني، عدم القدرة على الجزم بحصول الاستقراء

المطبق للآيات الدالة على القضية، الحاجة الماسة إلى الاستنباط وتعلم دلالة الألفاظ، والإلمام بتفسير القرآن جميعه، وصعوبة ترتيب الموضوع وسمة الغموض تبرز في جوانب منه.

وبين المستويين تأتي قضايا فيها من سمات المستوى الأول، وفيها من سمات المستوى الثاني. كقضية اختيار الزوج الصالح ، وقضية تربية الأولاد، وقضية طلب العلم، وقضية المعاملة مع الناس.

والنوع الأول موضوع تفسيري.

والنوع الثاني تفسير موضوعي.

فالتفسير الموضوعي يحتاج إلى إجالة للنظر في آيات القرآن، وإعمال للفكر، للوصول إلى مراد الله عزوجل في القرآن عن هذه القضية.

وكل موضوع قرآني، هو موضوع تفسيري.

وكل موضوع تفسيري هو تفسير موضوعي إذا تعمق فيه الباحث، واعمل فكره، وأجال نظره، في لم شتاته واستنباط ما يتعلق به من الآيات غير المباشرة.

فطريقة التناول والتعمق فيها تكسب الموضوع السمة الخاصة به، وتقربه من التفسير الموضوعي أو تبعده عنه.

وينبني على هذا أن اشتراط أن يكون عنوان الموضوع القرآني من مفردات القرآن الكريم التي جاءت في الموضوع، شرط غير متعين، لأن من الموضوعات ما لا يوجد لها ألفاظ قريبة منها في القرآن الكريم، وإنما تستنبط وتستخرج معانيها من الآيات.

محاذير في التفسير الموضوعي

عرض التفسير على أساس الموضوع، بطريقة التناول الخاصة بالتفسير الموضوعي، تكتنفها بعض المحاذير، التي ينبغي الانتباه إليها. من ذلك :

= المبالغة في مكانة التفسير الموضوعي.

فإن التفسير الموضوعي طريقة عرض، لا آلية تفسير، و طرق التفسير معروفة، فإن المفسر إمّا أن يفسر القرآن بالقرآن والسنة، أو بقول الصحابي والتابعي، أو يفسر بمقتضى اللغة والعقل، بما لا يخالف مخالفة تضاد التفسير بالمأثور، فيأتي إلى الآية وينظر في تركيبها لفظة لفظة، ثم ينظر في دلالات الألفاظ في الجملة، ثم المعنى بعد توالي الجملة والجملة، وهكذا، فهذا التفسير التحليلي، أو يأتي إلى أقوال المفسرين في الآية ويقارن بينها ليصل إلى ما يراه في معناها، فهذا التفسير المقارن، ومن هذه الطرق ينتج ما يسمى بالتفسير البلاغي والأدبي والفقهي والاجتماعي، والنحوي، وغيرها من مناحي التفسير.

فإذا تقرر ذلك فإن هدايات القرآن إنما تكون بطرق التفسير على ترتيب المصحف، يعني بالتفسير الترتيبي المصحفي الموضعي لا الموضوعي الذي يأخذ معاني الآيات من التفسير المعتاد، ويعرضها على أساس الموضوع.

والمبالغة في دعوى أن التفسير الموضوعي يكشف هدايات القرآن العظيم في الموضوع، بما لا يوجد في التفسير الموضعي المعتاد، دعوى غير مقبولة، لأن

التفسير الموضوعي عالة على طرق التفسير المعتاد كما تقدم، والله الموفق [١].

ويوضح ذلك أن تعلم أن المفسر في التفسير على أساس ترتيب المصحف يراعي في بيانه معنى الآية وما يتعلق بها في جميع المصحف، مع مراعاته لسياقها وسباقها، ولذلك تراه يعقد ما يتعلق بمشكل القرآن الكريم، والآيات موهمة الاختلاف، وما يتعلق بالمتشابه، ونحو ذلك؛ فالمعنى الذي يقرره هو المعتمد الذي يبنى عليه في التفسير الموضوعي.

فالحق – إن شاء الله تعالى - أن كل هدايات التفسير الموضوعي هي من

---

(١) وقد وجه سؤال إلى فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور: إبراهيم خليفة حفظه الله، أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم بالأزهر ، عن التفسير الموضوعي، في لقاء مطول معه، تجده على صفحات الشبكة العنكبوتية، هذا نص السؤال والجواب: "الفرقان: العصر الحديث أُطلق عليه بعض العلماء (عصر التفسير الموضوعي)، ويدعون إلى التوجه نحو هذا النوع من التفسير باعتباره يحقق الغاية من تفسير القرآن، وهي إصلاح الواقع على هدي القرآن ومنهجه. أما التفسير التحليلي أو التقليدي الذي يقوم على تفسير القرآن سورة حسب ترتيب المصحف فيرون أنه لا يخدم هذا الهدف، ولا يَصْلُح لهذا العصر. هل توافقونهم هذا الرأي؟ د. إبراهيم: لا أوافق بحال من الأحوال على هذا الكلام. وأقول: أرى التفسير الموضوعي ثانويّاً جدّاً، والتفسير هو التحليلي – في الواقع- لكن مع إبراز هدايات القرآن. بل أقول: إن التفسير الموضوعي إنما يتكلم فيه من يهرب ولا يكون لديه القدرة على الانتفاع بهدايات القرآن من التفسير التحليلي؛ لأنه لو استُثْمِرْت كل جزئية من جزئيات السورة التي يكون المفسر بصدد تفسيرها لخرجنا بأطيب الأُكُل وأعظم الثمرات. ولذا فإن الأقدمين عُنوا بالتفسير التحليلي وكتبوا المجلدات الكثيرة فيه، ولا نجد هذا في التفسير الموضوعي، وإن زعم البعض أنه كان منذ بواكير الإسلام، وحملوا عليه تفسير القرآن بالقرآن، وهو -عندي- ليس من التفسير الموضوعي من قليلٍ ولا كثير"اهـ انظر الرابط التالي:

http://kafoor.net/?p=٨٩٦٩

هدايات الآيات القرآنية في التفسير الموضعي المعتاد.

واستفدنا بالتفسير الموضوعي طريقة عرض قريبة المأخذ للمتخصص الذي يريد عرض موضوع ما من موضوعات القرآن الكريم وهداياته، بحسب ما قرر في طرق التفسير الترتيبي التوحيدي الموضعي المصحفي المعتاد، والله الموفق.

= الإصرار على تناول الآيات بحسب ترتيب النزول.

وهذا الأمر فيه نظر، كما يلي:

- أنه لا يوجد ما يمكننا من الجزم بترتيب النزول لآيات القرآن الكريم وسوره إلا في مواضع يسيرة.
- أنه يقوم على أساس مخالفة ترتيب المصحف في سوره ، وفي الآيات داخل المصحف. ومعلوم أن ذلك بالتوقيف، ولم يحصل إلا لحكمة وهداية، فمغادرة هذا الترتيب تقصير مخالف لحكمة الترتيب.
- أن الأصل هو البحث في القضية القرآنية، وهذا لا تعلق له بترتيب النزول إلا في قضايا النسخ في الأحكام. وهو في آيات معينة محددة.

وطرح قضية ترتيب النزول كان أولاً على يد نودلكه المستشرق الألماني في كتابه (تاريخ القرآن)، واقترح تقسيما للنزول، لكن عموماً لا دليل على أغلب ما يورده في ذلك، وتلقف هذا الأستاذ أمين الخولي، فأتى به للتفسير الأدبي، حيث يتعامل مع القرآن الكريم على أنه نص أدبي، يتلمس بلاغته ومناسبة الأداء لمقتضى

الحال، والتطور الدلالي للكلمة، وهذه قضية أخرى غير ما يرمي إليه التفسير الموضوعي .

ويرشح ما تقدم، أنه لا مناسبة بين هذا الترتيب، وبين الموضوع القرآني، الذي من المفترض أن يرتب بحسب عناصر الموضوع، لا النزول! إلا في ما له تعلق بالأحكام، ويحتاج إلى إبراز التدرج في التشريع، وما يترتب عليه من معرفة الناسخ والمنسوخ.

ومما يخشى هنا : أن الإصرار على ترتيب الآيات بحسب النزول سيقود إلى تفسير الآية منزوعة عن سياقها في السورة، فلا يراعى فيه موافقة السياق، وهذا يؤدي إلى إحداث معاني للآية تخرج بها عن سياقها، ومعلوم أن ترتيب الآيات داخل السورة توقيفي بإجماع!

= الخوف من الانجرار إلى منهج القرآنيين.

من الأمور التي ينبغي للباحث الحذر منها، أن لا ينجر إلى منهج القرآنيين، من حيث لا يشعر، وذلك أن القرآن الكريم نص على أن الرسول ^ يبين القرآن، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٦٤) .

فتطلب ما جاء في القرآن بدون مراعاة ذلك سيجر صاحبه إلى طريقة القرآنيين، الذين يقتصرون على القرآن دون السنة .

وأخشى أن المبالغة في نفي دخول ما تضيفه السنة من عناصر في الموضوع، والاقتصار على عناصر القضية الواردة في القرآن الكريم، تجر إلى هذا المحذور.

= نسبة القصور إلى المفسرين .

وقع في عرض طريقة التفسير الموضوعي عند بعض الناس، ما يشعر بتجهيل المفسرين، الذين لم يهتدوا بزعمه إلى هذه الطريقة من التفسير حتى جاء القرن الرابع عشر.

بل ويزعم أن تفسير القرآن الموضعي أو الترتيبي أو التوحيدي، للآيات بحسب ترتيب المصحف، لم يبين مراد الله من القضايا، حتى جاء التفسير الموضوعي وبينها.

وأزعم أن علماء التفسير لم يكن لهم أن يفسروا القرآن العظيم ويكشفوا عن مراد الله في الآية على الترتيب المصحفي إلا وقد حصل لديهم هذه الصورة الذهنية عن الموضوع، بنسب تتفاوت من مفسر إلى آخر.

= التداخل مع العلوم.

ليعلم أن مبادئ العلوم، من مقاصدها تمايز العلوم، وإصلاح المعاني، ودفع فساد التباس بعضها ببعض.

وقد لمست عند استعراض ما كتبه بعضهم عن التفسير الموضوعي، أنه لم يراع ذلك؛ فعرض التفسير الموضوعي وكأنه علم المناسبات. وأدخل آخر فيه علم الوجوه والنظائر.

وعرف بعضهم التفسير الموضوعي بطريقة أدخلت فيه تفسير آيات الأحكام، وناسخ القرآن ومنسوخه، وعلم مشكل القرآن الكريم وموهم الاختلاف، وعلم متشابه القرآن الكريم، الآيات المشكلة، ونحو ذلك من علوم القرآن، مما أفقد التفسير الموضوعي تميزه عن غيره من علوم القرآن العظيم.

= إطلاق ما لا يحسن على القرآن.

عبارة المفسر عن القرآن في تناوله، ينبغي أن تتحلى بمراعاة قدسية القرآن في كونه كلام الله تعالى، فلا يقع فيها من إطلاق الألفاظ التي لا يجوز استعملها في حق كلام الله تعالى.

فقد يطلق بينهم عن الموضوع القرآني أوصافاً وكأنه غير كلام الله تعالى، أو كأنه نص أدبي بلاغي من كلام العرب.

ويطلق بعضهم على اللفظ القرآني اسم (المصطلح القرآني)، وهذا لا يصح، لأن (الاصطلاح) مصدر اصطلح، وهو مصطلح جمعه مصطلحات، [من باب الافتعال، قلبت تاؤها طاءاً وأريد بها هاهنا ألفاظ مخصوصة موضوعة لمعان يمتاز بعضها عن بعض باعتبار قيد يميزه عنه، وسبب إطلاقها عليها هو الاتفاق على وضعها لتلك المعاني لتحصل عند استعمالها مع أداتها إصلاح المعاني ودفع فساد التباسها بعضها ببعض][1].

فالاصطلاح بمعنى اتفاق طائفة على شيء مخصوص و لكل علم اصطلاحاته، والقرآن العظيم كلام الله لا يقال عن معانيه وألفاظه أنها اصطلاح، لأنها لم تحصل باتفاق طائفة، وإنما بما يستفاد من معنى اللفظ في القرآن الكريم.

وقد يطلق بعضهم عبارات لا تليق كأن يقول: عناصر الموضوع ناقصة في القرآن، أو يقول: لم يستوف القرآن عناصر الموضوع. وهذه عبارات لا يصح إطلاقها على كتاب الله تعالى.

---

(١) من المختصر في علم الأثر للكافيجي ص١١٢.

= التداخل في الموضوعات.

هذه من المشاكل التي تواجه الباحث في التفسير الموضوعي، لأن الآيات قد تتضمن الدلالة على أكثر من قضية، فعلى الباحث أن يبذل ما في وسعه لتمييز موضوعه والوقوف على حدوده، بحيث يسلم من تداخل الموضوعات، ومن الخروج في موضوعه عن حد الموضوعية، التي هي من سمات البحث العلمي.

والذي يؤكد أهمية الحذر من هذه الأمور، أن المستشرقين كانت على أيديهم البداية التطبيقية لهذا المنهج المسمى (التفسير الموضوعي)، فهم قد يستعملون أموراً لا تتفق مع الشرع، لأنهم ليسوا من أهله أصلاً؛ فعلى الباحث أن يحذر من بعض الأفكار التي تسربت إلى منهج التفسير الموضوعي، وبعض العبارات التي لا يحسن استعمالها، والله الموفق.

خطوات التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي طريقة عرض، وليس آلية تفسير؛

وعليه فإن الباحث في هذا المجال لن يقوم بتفسير الآيات، إنما سيستفيد من كلام أهل التفسير الموضعي الترتيبي في ذلك.

وغاية جهده وعمله يظهر في جانبين:

الجانب الأول : إبراز الموضوع بأدلته الشرعية، وعرضه بطريقة تعالج حاجة الناس اليوم.

الجانب الثاني : استنباط ما يمكن استنباطه لإضافته إلى معاني الآيات في التفسير، والتنزيل على الواقع، لمعالجة الواقع في مسألة ما.

وخطوات الكتابة في التفسير الموضوعي هي التالية:

الخطوة الأولى :

أن يحدد الموضوع الذي يريد الكتابة فيه، ويضع عنوانه.

وتحديد الموضوع ينبغي أن يكون بحسب الحاجة إليه.

وعند جمع الآيات التي تدخل في الموضوع ينبغي أن لا يقتصر فيه على الآيات ظاهرة التعلق بالموضوع لورود ألفاظ وعبارات تتعلق بالموضوع فيها، بل عليه أن يستلمح ويستنبط ويتأنى، باذلاً الجهد في ذلك، وقد يعينه أن يقرأ قراءة سريعة كل ما كتب عن الموضوع في شتى أنواع الدراسات الشرعية، فقهية وتفسيرية وحديثية؛ فيمر على كل ذلك ليجمع كل ماله علاقة بالموضوع من آيات لم يرد فيها ألفاظ صريحة الدلالة على الموضوع.

وليس من شرط عنوان الموضوع أن يكون بألفاظ أو عبارات وردت في القرآن، لأن الموضوع قد يكون مستنبطاً من آيات، لم يأت فيها لفظ خاص به. نعم يفضل اختيار عنوان الموضوع من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم.

ويستحسن في هذه الخطوة أن يسجل كل العناصر التي تجمعت لديه في ورقة مع ذكر مرجع كل عنصر، فتكون أمامه جميع العناصر والقضايا التي وقف عليها في الآيات القرآنية.

الخطوة الثانية :

أن يرتب عناصر الموضوع ترتيباً متسلسلاً منطقياً، وذلك يهدف إلى إبراز كل معاني الموضوع والدلالة عليه.

فيجمع كل عنصر إلى ما يقرب منه، وما يؤدي إليه. ويحدد أثناء ذلك ما قد يستشعره من جوانب بحاجة إلى مزيد بحث ونظر.

وقد جرت العادة بأن يقسم الموضوع إلى أبواب وفصول، وهذا ليس بلازم، فلو عرض الموضوع بعناوين مترابطة متسلسة يؤدي كل عنوان إلى الآخر لم يمنع ذلك. وعلى كل حال فإن المقصود ترتيب عناصر الموضوع.

الخطوة الثالثة :

إكمال عناصر الموضوع بما جاء في السنة النبوية، فإنها هي البيان لما في القرآن الكريم، وأمر الله بالرجوع إليها وأخذ ما فيها.

وهذا غير ما يحصل من الرجوع إلى السنة في بيان معنى آية في الموضوع، لأن المطلوب هنا إكمال عناصر الموضوع من السنة، يعني من البيان النبوي.

فينظر في الجهات التي استشعر في الخطوة السابقة أنها بحاجة إلى مزيد

بحث ونظر، ويستكمل ما يتعلق بها من السنة النبوية.

الخطوة الرابعة :

تفسير ما تجمع لديه من الآيات، ويعتمد في ذلك ما يحتاجه الموضوع من طرق التفسير: بالمأثور أو بالرأي بطرقه المعروفة: التحليلي أو المقارن أو الإجمالي أو اللفظي؛ وذلك لأن لكل موضوع شخصيته وآليته التي يحتاجها لتبينه وتكشف ما فيه.

وأثناء هذه الخطوة لا يمتنع عن تغيير خطة الموضوع بالزيادة أو التعديل أو التقديم أو التأخير، أو حتى الحذف، أو الدمج أو الفصل والتفريق؛ فإن تناول الآيات بالتفسير يكشف من المعاني في الموضوع غير ما تكشف في النظرة الأولية.

مع ملاحظة أن المقصود توظيف معاني الآية وكلام المفسرين فيها لإبراز دلالة الآية على ما تتعلق به من عناصر الموضوع، فليس من مقاصد التفسير الموضوعي الكلام على معاني الآية التي لا تتعلق بالموضوع، فإن تتبع هذا يشتت القارئ ويخرج البحث عن وجهه، ولذلك عليه أن يسبك بعبارته هذه المعاني.

وإذا مر عليه خلاف في المراد من كلمة أو جملة في الآية متعلقة بالموضوع فإنه يذكر الراجح في الصلب، ويجعل محل ذكر الخلاف وبحثه في الهامش.

ويبعد عن كل ما يشتت القارئ عن الموضوع.

الخطوة الخامسة :

الاستعانة بعلوم القرآن وأصول التفسير تكون بحسب مقتضيات البحث في تفسير الآيات، فما يحتاج إلى ذكر سبب النزول ذكره فيه، وما يحتاج إلى بيان المناسبة ذكرها فيه، وما يحتاج إلى تقرير قواعد أصول التفسير قرره، وما يحتاج إلى

بيان ناسخ ومنسوخ أورده، وهكذا، و ما لا يحتاج على ذلك فلا يتعرض له.

وليلاحظ أنه يكتب في التفسير الموضوعي، و لا يكتب بحثاً في موضوع قرآني، بمعنى ليراعي أن تكون كتابته تفسيراً موضوعياً، لا بحثاً في موضوع قرآني، فهذا شيء وذاك شيء آخر.

الخطوة السادسة :

أن يهتم في درسه بما جره إلى الكتابة في هذا الموضوع، محاولاً إبرازه وبيانه، وتنزيل الحكم عليه. وهذا هو هدف التفسير الموضوعي، فإنه يهدف إلى معالجة واقع معين من خلال بحث هذا الموضوع القرآني وإبرازه على هيئة التفسير الموضوعي.

الخطوة السابعة :

إبراز هدايات القرآن الكريم في هذا الموضوع، والإجابة عن الشبهات المتعلقة به، إذ هي من أهم بواعث نشأة التفسير الموضوعي في عصرنا هذا.

المقصد الثاني[١]

الوحدة الموضوعية للسورة

تعريف الوحدة الموضوعية:

الوحدة الموضوعية اسم مركب توصيفي.

وعلى السنة التي يُجرى عليها في التعريف، نبدأ بتعريف ركني الاسم المركب، ثم نعرفه بعد التركيب.

فـ**(الوحدة)** في اللغة مصدر من [وَحُدَ، كعَلِمَ وكَرُمَ، يَحِد فيهما، وَحَادَةً ووُحودَةً ووُحوداً ووَحْداً ووُحْدَةً وحِدَةً بَقِيَ مُفْرَداً، كتَوَحَّدَ. وَحَّدَهُ تَوْحِيداً: جَعَلَهُ واحِداً، ويَطَّرِدُ إلى العَشَرَةِ. ورجلٌ وحَدٌ وأَحَد، محركتين، ووحِدٌ ووحيدٌ ومُتَوَحِّدٌ مُنْفَرِدٌ، وهي وَحِدَةٌ] [٢].

وفي اصطلاح علماء التفسير : يريدون به المحور أو الأساس الوحيد الذي يجمع الموضوعات المتعددة في السورة.

و(الموضوعية) في اللغة من : "الواو والضاد والعين: أصلٌ واحد يدلُّ على الخَفْض للشيء وحَطِّه. ووَضَعتُه بالأرض وضعاً، ووضَعت المرأة ولدَها. و وُضِع في تِجارته يُوضَع: خَسِر. والوضائع: قومٌ يُنقَلون من أرضٍ إلى أرضٍ يسكنون بها.

---

(١) لمّا اتجه الكثير من المتأخرين إلى إدخال الوحدة الموضوعية للسورة ضمن التفسير الموضوعي، رأيت أنه من المهم تحرير الكلام فيها ليظهر التمايز بينها وبين التفسير الموضوعي.

(٢) القاموس المحيط (١/ ٣٥٦).

الوَضيع: الرّجُل الدنِيّ. والدّابّةُ تَضَع في سَيْرِها وَضْعاً، وهو سَيْرٌ سهلٌ يخالف المرفوع.

ووَضَعَ الرّجُلُ: سار ذلك السَّير.

وذُكِرَ أنَّ الواضِعات: الإبل تأكل الخلّة.

والرجل المُوَضَّع: الذي ليس بمستحكمِ الأمر"اهـ(١).

وفي الاصطلاح عرفاً : الفكرة (القضية) التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه(٢).

وعند علماء التفسير الموضوعي : هو القضية التي وردت في القرآن(٣).

والاسم بركنيه (الوحدة الموضوعية) يطلق على معاني :

الأول : ترابط سور القرآن الكريم وآياته حتى يكون كالكلمة الواحدة(٤) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٧ - ١١٨)، باختصار.

(٢) قال الجرجاني في التعريفات ص٣٠٥: " الموضوع هو محل العرض المختص به. وقيل: هو الأمر الموجود في الذهن وموضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية"اهـ، واعتمد هذا المعنى مجمع اللغة العربية انظر المعجم الوسيط مادة (وضع) (٢/ ١٠٠٤).

(٣) يدل عليه تصرفهم في ذلك.

(٤) هذه الكلمة ذكرت في تطلب مناسبات القرآن العظيم، نقل الزركشي في البرهان (١/ ٣٦)، عن القاضي أبي بكر بن العربي في سراج المريدين قوله: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"اهـ. وذكرت في تطلب تفسير الآية بالآية (تفسير القرآن بالقرآن)قال الرازي في تفسيره عند الآية ٣٠ من سورة البقرة، : " المسألة الأولى : في ﴿إذ﴾ قولان :

=

وهـذا موضـوع علـم المناسـبات، وهـو مـا يـصح أن يطلـق عليـه : (الوحـدة القرآنية)[1].

الثـاني : طلـب الآيـات في الموضـوع الواحـد مـن القـرآن العظـيم، وهـذا موضوع التفسير الموضوعي.

والثالـث : طلـب المحـور الأسـاس الـذي تـدور عليـه مواضـيع الـسورة، وتهدف إليه. فهو وحدة الغرض في الـسورة الواحـدة ذات الموضـوعات العديـدة. وهــو المـسمى بالوحــدة الموضــوعية في الــسورة. ويدخلـه بعـضهم في التفـسير الموضوعي وهو ألصق بعلم المناسبات منه بالتفسير.

الرابع : طلب المعاني التي جاءت عليها اللفظة مـن ألفـاظ الآيـة، في غيرهـا من الآيات، وهذا موضوع علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم.

الخامس : طلب تفسير الآية فيما ورد في معناها من الآيات الأخـرى، وهـذا

=

أحدهما : أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب . الثاني : وهو الحق أنه ليس في القرآن ما لا معنى له وهو نصب بإضمار اذكر ، والمعنى أذكر لهم قال ربك للملائكة فأضمر هذا لأمرين : أحدهما : أن المعنى معروف . والثاني : أن الله تعالى قد كشف ذلك في كثير من المواضع كقوله : ﴿واذكر أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف﴾ (سورة الأحقاف : ٢١)، وقال : ﴿واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ (سورة ص : ١٧)، ﴿واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أصحاب القرية إِذْ جَاءهَا المرسلون إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين﴾ (سورة يس : ١٣ ، ١٤)، والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصرحة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك ههنا اكتفاء بذلك المصرح"اهـ

(١) انظر كتاب الوحدة القرآنية دراسة تحليلية مقارنة، للدكتور محمد بن محمود خوجه، دار كنوز أشبيليا – الطبعة الأولى ١٤٣١هـ

هو تفسير القرآن بالقرآن.

ويتحرر – إن شاء الله تعالى – أن الوحدة الموضوعية بمعنى تطلب الآيات المتعلقة بموضوع واحد في القرآن الكريم هي التفسير الموضوعي؛

و جمع معاني اللفظة الواحدة من القرآن الكريم، علم مستقل يسميه علماء علوم القرآن :"علم الوجوه والنظائر".

و تطلب الرابط بين سور القرآن الكريم وآياته حتى يكون كالكلمة الواحدة، هو علم المناسبات.

و تطلب تفسير الآية من آيات أخرى، هو تفسير القرآن بالقرآن، وليس التفسير الموضوعي، و لا الوحدة الموضوعية.

وأن تطلب المحور الذي يجمع المواضيع المتشعبة في السورة الواحدة من القرآن الكريم، هو المسمى بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية. وهذا يتعلق بأغراض السور القرآنية، وهو من فروع علم المناسبات.

وهذا الأخير هو موضوع هذا الدرس : الوحدة الموضوعية للسورة.

و مع قولنا لا مشاحة في الاصطلاح؛ إلا أن تحرير المراد من المصطلح، ونفي التداخل بينه وبين غيره مما يشتبه معه، من مقاصد مبادئ العلوم.

ومحل قولهم : لا مشاحة في الاصطلاح لمن يصطلح لمعنى بمسمى عند نفسه، لا في مقام تقرير العلوم.

قال طاهر الجزائري (ت١٣٣٨هـ) رحمه الله: "ذكر المحققون أنه ينبغي لمن تكلم في فن من الفنون، أن يورد الألفاظ المتعارفة فيه، مستعملاً لها في معانيها المعروفة عند أربابه.

ومخالف ذلك إمّا جاهل بمقتضى المقام أو قاصداً للإبهام أو الإيهام.

ثم قال: وأمّا قولهم: لا مشاحة في الاصطلاح، فهو من قبيل تمحل العذر، وقائل ذلك عاذل في صورة عاذر"اهـ[١].

---

(١) توجيه النظر (١/ ٧٨).

سور القرآن الكريم والوحدة الموضوعية فيها

سور القرآن العظيم؛

منها ما له موضوع واحد، كسورة الإخلاص وسورة تبت، وسورة ألهاكم، ونحوها من السور المكية. فهذه غرضها المحوري واضح وظاهر.

ومنها ماله موضوعات وتفريعات فهذه تطلب الوحدة الموضوعية فيها، بمعنى المحور الذي يجمع شعب هذه الموضوعات، وتهدف إليه السورة بموضوعاتها.

قال الشاطبي رحمه الله: "إن الكلام المنظور فيه؛

تارة يكون واحدا بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل.

وتارة يكون متعددا في الاعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة كسورة البقرة وآل عمران والنساء واقرأ باسم ربك وأشباهها، ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة أم نزلت شيئا بعد شيء،

ولكن هذا القسم لها اعتباران:

اعتبار من جهة تعدد القضايا، فتكون كل قضية مختصة بنظرها ومن هنالك يلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول، فلا فرق بينهما في التماس العلم والفقه.

واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال، ويشترك معه أيضا القسم الأول لأنه نظم ألقي بالوحي،

وكلاهما لا يلتمس منه فقه على وجه ظاهر وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز وبعض مسائل نبه عليها في المسألة السابقة قبل[١]، وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات؛

فاعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها؛

فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها؛

منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب.

ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم.

ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب.

ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك.

ولا بد من تمثيل شيء من هذه الأقسام فبه يبين ما تقدم؛

فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ إلى قوله: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كلام واحد وإن نزل في أوقات شتى وحاصله بيان الصيام وأحكامه وكيفية آدابه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لا بد منها ولا ينبني إلا عليها.

---

(١) يعني في المسألة الثانية عشرة، لأنه أورد كلامه في المسألة الثالثة عشرة، من مسائل الكتاب العزيز.

ثم جاء قوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الآية كلاما آخر بين أحكاما أخر.

وقوله: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾. وانتهى الكلام على قول طائفة وعند أخرى أن قوله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ نازلة في قضية واحدة .

وسورة اقرأ نازلة في قضيتين:

الأولى: إلى قوله ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

والأخرى : ما بقي إلى آخر السورة.

وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المكيات"اهـ[١].

والمقصود : بيان أن الوحدة الموضوعية للسورة إنما تطلب في السور ذات الموضوعات، سواء كانت طويلة أو قصيرة، أمّا السورة التي ليس لها إلا موضوع واحد، فهذا لا يطلب فيها الوحدة الموضوعية المصطلح عليها هنا.

---

(١) الموافقات (٣/٤١٤ – ٤١٧ دراز)، (٤/٢٦٦ – ٢٧٠ مشهور).

المعارضون للوحدة الموضوعية

ذهب أبو العلاء محمد بن غانم، إلى أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله، [وأن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم][(١)].

وقد ذكر أن من البلاغيين من ذهب إلى أن الاقتضاب موجود في مواضع من القرآن العظيم، ولكنهم لم يقولوا كأبي المطرف أنه هو الأصل في أسلوب القرآن العظيم ونظمه[(٢)]. ومرادهم بالاقتضاب: الانتقال من كلام إلى كلام غيره بدون ملاءمة ولا مناسبة بين الكلامين. مأخوذ من قضب بمعنى قطع، ويكون الانتقال من باب حسن التخلص ونحوه.

والقول في الوحدة الموضوعية هو القول في المناسبات.

ولّما لم يكن علم المناسبات توقيفياً. وكان مرجعه إلى اجتهاد المفسر؛ فقد اختلف العلماء رحمهم الله في حكم تطلب المناسبات في القرآن العظيم.

فذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز تطلب المناسبات في القرآن العظيم؛ لأنه من التقول على الله بغير علم، ولأن الآيات كانت تتنزل بحسب الوقائع في نيّف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة، ووقائع متعددة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

---

(١) الفوائد المشوق ص١٤١، الإتقان (أبو الفضل٣/٣٢٦).

(٢) في معجم البلاغة العربية ص٥٤٦-٥٤٨.

وممن ذهب هذا المذهب عبدالعزيز بن عبدالسلام[١]، والشوكاني[٢].

وهذا المذهب في نفي المناسبة في القرآن الكريم، أحمله على نفي التكلف في المتناسبة، لا نفي أصل المناسبة، فإن ترابط الكلام، وحصوله على وجه من الالتئام، وصورة من النظام، من أعلى ضروب الفصاحة، خاصة إذا تنبهنا إلى أن ترتيب الآيات داخل السورة بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقد تواتر ذلك عنه تواتراً معنوياً لا شبهة فيه، وقد نقل الاجماع عليه غير واحد من أهل العلم[٣]؛ وهذا يستلزم أن يستلمح الدارس وجه هذا الترتيب، وما تضمنته الآيات فيه من موضوعات، وما الرابط والفلك الذي تدور حوله معانيها؟!.

والمعارضون للوحدة الموضوعية يرون أن فيها حصراً لأغراض السورة في هدف واحد مما يعرض بقية الأغراض إلى الإهمال، وترك الالتفات إليها.

وقد تجد من يقول : إن في تطلب الوحدة الموضوعية ما يجريء الجهلة على الخوض في تفسير القرآن ومعانيه، بنظر قاصر، يطلب فيه حصر معاني السورة في محور واحد، وقد يتجرأ فينفي بقية الأغراض .

والحق؛ أن ما ذكره المعارضون لوحدة السورة الموضوعية، هو من غيرتهم المحمودة، التي لا بد أن تشكر لهم، وأن يؤخذ بعين الاعتبار في ضوابط تطلب الوحدة الموضوعية للسورة؛ إذ هو مما يخشى ، ومما ينبغي التحرز منه، لا أن يمنع

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١ /٣٧)، الاتقان (أبوالفضل٣ /٢٢٣-٣٢٣).

(٢) فتح القدير الجامع بين علمي الرواية والدراية في التفسير (١ /٧٢).

(٣) انظر تهذيب وترتيب الاتقان ص١٦٠.

طلب الوحدة الموضوعية من أصلها.

ومنهم من يقول: إن تطلب الوحدة الموضوعية ممتنع، لأن ذلك يختلف من مفسر إلى مفسر إذ الوحدة الموضوعية اجتهاد.

وهذا متعقب؛ بأنه يلزم عليه ترك تفسير القرآن بالرأي أصلاً، وهذا خلاف الراجح فيه من أنه يجوز بالشروط المعروفة. وبأنه ما المانع أن يكون تطلب الوحدة الموضوعية مرجعه إلى الاجتهاد، بحسب ما يتقرر للمفسر من مواضيع السورة والوحدة الجامعة لها، ثم يكون النظر في الاجتهاد، وترجيح ما يكون الأقرب والأسلم، والأكثر انضباطاً مع شروط القبول. ولو تعدد اجتهاد المفسرين في الوحدة الموضوعية للسورة ما المانع من اعتبار ذلك جميعه على أساس أنه ضرب من النكات العلمية التي يقال فيها: النكات لا تتزاحم. وهي مثل الزهرة تشم و لا تفرك.

وقد تجد من يمنع تطلب الوحدة الموضوعية للسورة لأن الموضوعات المتعددة من الصعب جمعها تحت محور واحد.

ويتعقب بأنه ما المانع من ذلك مع صعوبته، أليس الدين كله بأحكامه وتشريعاته وآدابه يدور على محور واحد وهو تحقيق العبودية لله رب العالمين.

ألم يقل صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١)، فأدار

---

(١) أخرجه البزار (١٥/ ٣٦٤رقم٨٩٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩٢رقم١١٦٥)، وتمام في الفوائد (٢٧٦)، والحاكم (٢/ ٦٧٠رقم٤٢٢١ عطا)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (الميمنية ٢/ ٣٨١)، (الرسالة ١٤/ ٥١٢ - ٥١٣، تحت رقم ٨٩٥٢) والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤رقم٢٧٣)، (صحيح الأدب المفر =

بعثته ﷺ على محور واحد؟! فما الضير في أن يجتهد المفسر في تحري المحور الاساس الذي تهدف إليه السورة؟!

وقد تجد من يقول: حصر الوحدة الموضوعية للسورة في محور واحد تحكم؛ لأن معاني السورة قد يفتح الله فيها للناس في زمن بما لا يفتحه على من قبله.

ويتعقب هذا بأن المفسر إنما يذكر الوحدة الموضوعية بحسب ما يترجح لديه من معانيها، و لا ضير عليه أو على غيره إذا ما عدل فيما توصل إليه في الوحدة الموضوعية للسورة بحسب ما توسع لديه من معناها، ويمكن ضبط الوحدة الموضوعية بمعاني السورة الأصلية بحسب التفسير بالمأثور، ليسلم القول فيها توسيع معاني الآيات بحسب ما يستجد من أمور.

وقد يقال : إن القرآن لم ينزل على هذا الترتيب؛ بل نزل القرآن مفرقاً على أسباب وأحوال مختلفة، على مدى عشرين عاماً، يصعب معه طلب الوحدة الموضوعية للسورة، ويصعب معه طلب المناسبات بين موضوعاتها.

ويتعقب بأن قولهم: "إن القرآن لم ينزل على هذاالترتيب"؛ حقٌ!

=

ص١١٨، تحت رقم ٢٠٧/ ٢٧٣)، وأبو القاسم البغوي في " حديث مصعب" (١٠٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (١١/ ٢٦٣رقم٤٤٣٢)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩١، ١٩٢)، وشعب الإيمان (٦/ ٢٣٠رقم٧٩٧٨ - زغلول) وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٣٣ - ٣٣٤) بلفظ: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق". إلا البخاري فقد ورد عنده: "صالحي الأخلاق". والحديث صححه الحاكم، ومحققو مسند أحمد، والألباني في صحيح الأدب المفرد، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (٤٥).

ولكن لا يلزم من ذلك أن لا يكون ترتيبه في المصحف في سوره وآياته اجتهادي، بل هو في آياته ترتيب توقيفي اجماعاً، فترتيب الآيات داخل كل سورة بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وآه وسلم اجماعاً. أمّا ترتيب سوره فإنه بتوقيف على الصحيح، وإذا كان الحال كذلك فإن طلب المناسبة لا يتعارض مع كونه نزل منجماً على غير ترتيب المصحف.

ووجود آيات لا يظهر فيها وجه قريب للربط بين السور والآيات، لا يعني بطلان تطلب المناسبات من أصله، وكذا وجود تكلفات من بعضهم في تقرير المناسبة، إنما تكون سبباً لرد قولهم، لا لرد علم المناسبات من أصله. علماً بأنه ليس من شرط المناسبة أن تكون ظاهرة، بحيث يعلمها كل أحد، وليس من شرطها أن تكون الآيات متحدات أو متماثلات أو متداخلات، أو ما اشبه ذلك، بل قد تكون كذلك، وقد تكون بأمر آخر غير هذا.

قال الشيخ ولي الله الملوي (ت٧٧٤هـ): "قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة.

وفصل الخطاب: أنها على حسب الوفائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة.

ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، فإنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)."اهـ[١].

والمقصود أن المقرر: أن ترتيب الآيات داخل السورة توقيفي بالإجماع. وأن

---

(١) نظم الدرر (٦/١)، الاتقان (أبو الفضل٣/٣٢٣) بتصرف منهما.

ترتيب السور في المصحف توقيفي على الأرجح، فيطلب حكمة هذا الترتيب في الوحدة الموضوعية.

والحاصل : أن القول بفتح باب تطلب الوحدة الموضوعية بدون قيود لا يحسن، لما يترتب عليه من مفاسد.

والقول بمنع طلب الوحدة الموضوعية للسورة؛ لا يحسن لما فيه من إغماض لوجه النظم في اتساق المباني وترابط المعاني، ولأن لا دليل واضح في منعه.

والذي يترجح جواز طلب الوحدة الموضوعية ، ولكن بالضوابط التي تحقق المصالح المرعية لهذا الدرس، وتدرأ الأضرار والمفاسد المخشية عليه.

ضوابط طلب الوحدة الموضوعية للسورة

النظر في طلب الوحدة الموضوعية للسورة من باب التفسير بالرأي، إذ مرجعه إلى اجتهاد المفسر، وليس إلى التوقيف.

ولذلك يشترط فيه ما يتناسب معه من شروط قبول التفسير بالرأي.

والتوسط بين المانعين من تطلب الوحدة الموضوعية، والمجوزين بدون قيود، هو قبول تطلب الوحدة الموضوعية ولكن بضوابط.

ويمكن ضبط ذلك بالضوابط التالية:

الضابط الأول : أن لا يجعل للسورة غرضاً يتفق مع بعضها ويتنافر مع الآخر، فلا بد أن يتناسب الغرض والمحور الأساس الذي يذكره مع موضوعات السورة، وينتظمها، و لا يلغي بعضها.

الضابط الثاني : أن لا يذكر للسورة غرضاً يخرج السورة عن ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم، على الراجح في أن هذا الترتيب توقيفي.

الضابط الثالث : أن يبرز المحور الأساس الذي يجمع موضوعات السورة، بطريقة تجمع وتظهر جميع موضوعات السورة، فلا يكون فيه إهمال للموضوعات التي ذكرت في السورة، أو ترك لمعانيها.

الضابط الرابع : أن يتفق هذا الغرض مع المقاصد الكلية للقرآن الكريم، ولا يخرج عنها أو يخالفها.

الضابط الخامس : أن ينسجم هذا الغرض مع اسم السورة التوقيفي.

الضابط السادس : أن لا يجزم بأن هذا هو الغرض المحوري الذي تدور في

فلكه أغراض السورة. وإنما هو اجتهاد بحسب طاقته.

الضابط السابع : أن يكون المتناول لبيان المحور الأساس ممن لديه الصفة العلمية التي تؤهله لبحث هذا الموضوع.

الضابط الثامن : أن يتجنب في كل ذلك التكلف.

الضابط التاسع : أن لا يكون في هذا الغرض ما يقوي كلام أهل البدع والاتجاهات المنحرفة في التفسير.

الضابط العاشر : أن لا يخرج في ذكره لهذا الغرض عن دلالات الألفاظ من جهة العربية.

الضابط الحادي عشر : ضبط الوحدة الموضوعية بمعاني السورة الأصلية بحسب التفسير بالمأثور. حتى لا تتأثر وحدة السورة الموضوعية بما يستجد من أمور توسع معنى الآيات. وحصر ذلك بالتفسير بالمأثور، لأن معاني الآيات فيه هي الأصل، الذي لا ينبغي أن يخرج عنها، وتخالف مخالفة تضاد عند التفسير بالرأي المحمود.

الضابط الثاني عشر : أنه لا مانع في الوحدة الموضوعية أن تكون عامة، ليست مخصوصة بألفاظها و لا خاصة بالسورة؛ فقد تجتمع مجموعة من السور في الوحدة الموضوعية. وقد قال الشاطبي رحمه الله: "وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى:

أحدها : تقرير الوحدانية لله الواحد الحق غير أنه يأتي على وجوه كنفي الشريك بإطلاق أو نفيه بقيد ما ادعاه الكفار في وقائع مختلفة من كونه مقربا إلى الله زلفى أو كونه ولدا أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة.

والثاني: تقرير النبوة للنبي محمد وأنه رسول الله إليهم جميعا صادق فيما جاء به من عند الله إلا أنه وارد على وجوه أيضا كإثبات كونه رسولا حقا، ونفي ما ادعوه عليه من أنه كاذب أو ساحر أو مجنون أو يعلمه بشر أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم.

والثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به فرد بكل وجه يلزم الحجة ويبكت الخصم ويوضح الأمر.

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر. وما ظهر ببادي الرأي خروجه عنها فراجع إليها في محصول الأمر ويتبع ذلك الترغيب والترهيب والأمثال والقصص وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك"اهـ[١].

هذه الضوابط لابد من مراعاتها، عند تطلب الوحدة الموضوعية للسورة.

---

(١) الموافقات (٣/٤١٧ دراز)، (٤/٢٧٠ مشهور).

البداية والنشأة

الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، مرتبطة بإعجاز القرآن الكريم، في نظمه وترتيبه؛ فإن الاقتضاب وإن كان من سنن العرب في كلامهم(١)، إلا أنه لا يخالف أحد أن اتصال الكلام وترابطه وانتظام معانيه واتساق لفظه، وترابط رصفه، هو الأمد الأقصى، وبلاغة الفصحى.

وقد ذكر العلماء أن من إعجاز القرآن الكريم ارتباط آياته بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني.

قال أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) رحمه الله: "ارفع طرف قلبك، وانظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة، أو يتم حديثا وسورة. لا، بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل ... "اهـ(٢).

والوحدة الموضوعية صورة من صور هذا الإعجاز في القرآن الكريم، فهو

---

(١) الاقتضاب ضد التخلص، وذاك: أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك، ولا يكون للثاني علاقة بالأول. وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين، وأما المحدثون فإنهم تصرفوا في التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة. المثل السائر (١/ ٢٤٥ الشاملة).

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٠٢. (ذخائر العرب تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر الناشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م.ع.)

كـلام الله تعـالى، يحـير في روعتـه الألبـاب، ويـسلب في جمالـه القلـوب، ويأخـذ بالأبصار.

ومـن هنـا كانـت بدايـة الوحـدة الموضـوعية للقـرآن العظـيم، والوحـدة الموضوعية لسور القرآن الكريم.

قال ابن العربي (ت٥٤٣هـ) رحمه الله، في كتابه "سراج المريدين": "ارتبـاط آي القرآن بعـضها ببعض حتى تكـون كالكلمـة الواحـدة متسعة المعـاني منتظمـة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنـا فيه فلمّا لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنـا عليـه، وجعلنـاه بيننـا وبين الله ورددناه إليه"اهـ[1].

و أوّل مـن أظهـر علـم المناسـبات في القـرآن الكـريم: الـشيخ أبـوبكر النيسابوري (ت٣٢٤هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول عـلى الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية جنب هذه؟ وما الحكمة في جعـل هـذه الـسورة إلى جنـب هـذه الـسورة؟ وكـان يـزري عـلى علـماء بغـداد لعـدم علمهـم بالمناسبة[2].

وذكر بعضهم[3]أن الرازي رحمه الله في كتابه "التفسير الكبير"، هو أول من

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٦٣/١)، نظم الدرر للبقاعي (٦/١)، الإتقان (أبو الفضل٣/٣٢٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٦/١)، الإتقان (أبو الفضل٣/٣٢٢).

(٣) انظر كتاب الوحدة القرآنية دراسة تحليلية مقارنة، للدكتور محمد بن محمود خوجه، دار كنوز أشبيليا – الطبعة الأولى ١٤٣١هـ

نبه إلى الوحدة الموضوعية في السورة، وأشار إلى كلامه في تفسير سورة النساء، وعند تفسيره لسورة فصلت.

قال الرازي رحمه الله في أول سورة النساء: "اعْلَمْ أَنَّ هَـذِهِ السُّورَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّكَالِيفِ، وَذَلِكَ لِأَنَّـهُ تَعَالَى أَمَرَ النَّاسَ فِي أَوَّلِ هَـذِهِ السُّورَةِ بِالتَّعَطُّفِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَيْتَامِ، وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَإِيصَالِ حُقُوقِهِمْ إِلَيْهِمْ وَحِفْظِ أَمْوَالِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى خُتِمَتِ السُّورَةُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (النِّسَاءِ: ١٧٦)، وَذَكَرَ فِي أَثْنَاءِ هَـذِهِ السُّورَةِ أَنْوَاعًا أُخَرَ مِنَ التَّكَالِيفِ، وَهِيَ الْأَمْرُ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَلَمَّا كَانَتْ هَـذِهِ التَّكَالِيفُ شَاقَّةً عَلَى النُّفُوسِ لِثِقَلِهَا عَلَى الطِّبَاعِ، لَا جَرَمَ افْتَتَحَ السُّورَةَ بِالْعِلَّةِ الَّتِي لِأَجْلِهَا يَجِبُ حَمْلُ هَذِهِ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ، وَهِيَ تَقْوَى الرَّبِّ الَّذِي خَلَقَنَا وَالْإِلَهِ الَّذِي أَوْجَدَنَا، فَلِهَذَا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾"اهـ[١].

وقال رحمه الله في آخر كلامه على سورة فصلت عند الآية : ٤٤: "**وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ كَلَامِنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، هُوَ ذِكْرُ الْأَجْوِبَةِ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾** ؛

فَتَارَةً يُنَبِّهُ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

وَتَارَةً يَذْكُرُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَذَا القرآن ولم يُعْرِض عَنْهُ.

وَامْتَدَّ الْكَلَامُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْحَسَنِ وَالنَّظْمِ

---

(١) التفسير الكبير (إحياء التراث ٩/ ٤٧٥).

الْكَامِلِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ جَوَابًا آخَرَ عَنْ قَوْلِهِمْ ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾"اهـ(١).

وقال : "وَكُلُّ مَنْ أَنْصَفَ وَلَمْ يَتَعَسَّفْ عَلِمَ أَنَّا إِذَا فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ **صَارَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَلَامًا وَاحِدًا مُنْتَظِمًا مَسُوقًا نَحْوَ غَرَضٍ وَاحِدٍ**"اهـ(٢).

والظاهر أن الكلام عن الوحدة الموضوعية موجود من قبل الرازي رحمه الله، فقد جاء ذكره في كلام ابن العربي المالكي رحمه الله، كما جاء في كلام من تكلم عن المناسبات وترابط الكلام، من علماء علوم القرآن والبلاغة.

فاقترنت نشأة الكلام في الوحدة الموضوعية للسورة مع علم الإعجاز وعلم المناسبات.

وتطلب الغرض الذي سيقت له السورة، ذكره ابن العربي رحمه الله(٣).

وطبقه ابن القيم (ت٧٥١هـ) رحمه الله(٤).

وذكره محمد بن أحمد الملوي (ت٧٧٤هـ) رحمه الله في قوله: "الذي ينبغي في كل آية: أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة. ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم.

---

(١) التفسير الكبير (إحياء التراث ٢٧/ ٥٦٩).

(٢) التفسير الكبير (إحياء التراث ٢٧/ ٥٧٠).

(٣) سيأتي نقل عبارته في ذلك .

(٤) شفاء العليل (١/ ٢٤٥ – ٢٤٧)، وكان تطبيقه على سورة العنكبوت.

وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها **وما سيقت له**"اهـ[(١)].

وطبقه الشاطبي (ت٧٩٠هـ) رحمه الله[(٢)].

وقال أبوالفضل محمد البجائي المالكي (ت٨٦٥هـ)، وهو من شيوخ البقاعي رحمهما الله، ونقل هذا عنه: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات ي جميع القرآن هو أنك تنظر **الغرض الذي سيقت له السورة**.

وتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات.

وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب.

وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم **مفصلاً بين آية وآية، في كل سورة** والله الهادي"اهـ[(٣)].

قال البقاعي (ت٨٨٥هـ) رحمه الله متحدثاً عن المناسبات في القرآن العظيم: "وتتوقف الإجادة فيه على **معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها**،

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٣٧).

(٢) الموافقات (٣/٤١٢ دراز)، (٤/٢٦٥ مشهور)، في المسألة الثالثة عشرة من مسائل الكتاب العزيز وكان تطبيقه على سورة المؤمنين.

(٣) نظم الدرر (١/١١)، وانظر الإتقان (أبوالفضل٣/٣٢٧-٣٢٨) فقد نقل هذا الكلام بعينه وقال: "قال بعض المتأخرين".

ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها"اهـ[١].

(١) نظم الدرر (١/ ٥).

الفضل والثمرة

طلب الوحدة الموضوعية للسورة فيه من الفضل والثمرة الأمور التالية:

- أنه يبرز وجه بلاغة النظم وفصاحته، وهو وجه الإعجاز بالنظم[1].

---

(١) هذا الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن (ص٣٥ – ٣٨)، لما ذكر وجوه الإعجاز، قال: "والوجه الثالث: أنه **بديع النظم** عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها؛ فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه: **منها ما يرجع إلى الجملة** وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم و مباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى: أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلا في وزنه وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ولا يتصنع له وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب مسجع ولا فيه شيء منه وكذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام السجع، ومنهم من يدعى فيه شعرا كثيرأوالكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع فهذا إذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة وأنه معجزوهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه. **ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثير والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر**، وإنما تنسب إلى

=

=

حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القران على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ (الزُّمر من الآية:٢٣)، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء من الآية:٨٢)، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره فتأمله تعرف الفصل وفى ذلك. **معنى ثالث: وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها** من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع - يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم فإذا كان الاختلال يتأتي في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه، ستغنينا عن ذكر من هو دونهم وكذلك يستغني به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها، ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصد أصلا ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر تقصيرا عجيبا ويقع ذلك من رجزه موقعا بعيداً.

=

=

ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية ولا ينظم الرجز أو يقصر فيه مهما تكلفة أو تعمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا بينا ومنهم من يوجد بضد ذلك. وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد، لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا ويختلف اختلافا كبيرا ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة؛ فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمن. **ومعنى رابع وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع،** ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه، حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضي وتنقل يستحسن، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء والتحول من باب إلى باب ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة، ونبين أن القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف . **ومعنى خامس: وهو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس** فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله عز و جل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨)."اهـ

- أن فيه اشتغالا بالقرآن الكريم وقراءته، فيحصل بذلك الأجر والثواب المذكور فيما جاء عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ"(١).
- أن فيه تدبرا لمعاني القرآن الكريم، وإظهاراً لنفي الاختلاف عنه، وبهذا فإن فيه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢).
- أن فيه لفتاً للنظر في مقاصد القرآن الكريم ومراعاتها.
- أن فيه إبرازاً لروعة القرآن و عظمته، من هذه الجهة.
- أن فيه إبرازاً لوجه من أوجه إعجاز القرآن في النظم، ألا ترى أن القرآن نزل في عشرين سنة منجما، منه ما نزل ابتداء ومنه ما نزل بسب حوادث وأسباب، يختلف ترتيب

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب فيمن قرأ حرفاً من القرآن، حديث رقم (٣٠٨٧)، وأخرجه الدارمي موقوفاً على عبدالله بن مسعود في كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن، حديث رقم (٣٣٠٨). والحديث قال عنه الترمذي: "حسن صحيح غريب من هذا الوجه"، وصححه محقق جامع الأصول (٨/ ٤٩٨)، والألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٩) تحت رقم (٢٣٢٧).

نزوله عن ترتيبه في السور، ثم هو مع هذا مترابط النسيج، مترابط المعاني، متناسق الألفاظ والموضوعات، على درجة من تناسق المعاني وانتظام المباني، بل ولكل سورة ذات مواضيع متنوعة، معنى يجمع مواضيعها المتفرقة، ومحور تدور عليه!

- أنه يساعد على تفسير القرآن الكريم، وفهم معاني الآيات، بحيث يفهم المفسر المعنى المقصود مما قد تحتمله الآية، فيترجح له المراد بحسب دلالة مقاصد السورة، والغاية التي ترمي إليها.
- أن فيه بيان وجه التكرار في الآيات، إذ أضحى لكل سياق سورة من المعنى الدال على وجه الآية، ما يناسبها، ويميزها عن الموضع الآخرالذي وردت فيه، فكل محل يدل سياقه فيه على معنى يبين وجه تكراره.
- أن فيه توجيه المتشابه اللفظي وبيان وجهه ومعناه.

الوحدة الموضوعية للسورة والمقاصد الكلية للقرآن الكريم

الوقوف على المقاصد الكلية للقرآن الكريم يتعلق بدراسة الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة، من جهات متعددة، وهي التالية:

- يعتبر الأساس إلى مشروعية النظر في المحور الأساس الذي تهدف إليه السورة الكريمة بموضوعاتها المتعددة؛ لأن معرفة هذا الغرض سيقود إلى المقصد الكلي للقرآن الكريم، وإذا كان لجميع القرآن بتعدد سوره وآياته وموضوعاته مقاصد كلية يعود إليها، فإنه من باب أولى أن يكون للسورة الواحدة ذات الموضوعات المتعددة محوراً وهدفاً وغرضاً تدل عليه.
- الربط بين المقصد أو المحور الذي تدور عليه السورة، وبين مقصد من هذه المقاصد الكلية، من عمل الدرس للوحدة الموضوعية للسورة الكريمة.
- تعيين المحور أو المقصد أو الموضوع الذي تلتقي فيه جميع موضوعات السورة، يساعد على معرفته والعبارة عنه الوقوف على هذه المقاصد الكلية.

هذه أهم جهات العلاقة بين النظر في المقاصد الكلية للقرآن الكريم، والنظر في الوحدة الموضوعية للسورة.

وقد تعددت وتنوعت الأساليب في ذكر هذه المقاصد الكلية للقرآن الكريم، ولكنها ترجع إلى شيء واحد.

قال ابن القيم رحمه الله:"ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن وهي عشرة أقسام:

القسم الأول : تعريفه سبحانه نفسه لعباده بأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأنه واحد لا شريك له وما يتبع ذلك.

القسم الثاني : ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق و ذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته محتجا به على من ألحد في أسمائه وتوحيده وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها.

القسم الثالث : ما اشتمل عليه بدء الخلق وإنشاؤه ومادته وابتداعه له وسبق بعضه على بعض وعدد أيام التخليق وخلق آدم وإسجاد الملائكة وشأن إبليس وتمرده وعصيانه وما يتبع ذلك.

القسم الرابع : ذكر المعاد والنشأة الأخرى وكيفيته وصورته وإحالة الخلق فيه من حال إلى حال وإعادتهم خلقا جديدا .

القسم الخامس : ذكر أحوالهم في معادهم وانقسامهم إلى شقي وسعيد ومسرور بمنقلبه ومثبور به وما يتبع ذلك.

القسم السادس : ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم وذكر أحوالهم مع أنبيائهم وما نزل بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات، وما حل بهم من العقوبات ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان .

القسم السابع : الأمثال التي ضربها لهم والمواعظ التي وعظهم بها ينبههم بها على قدر الدنيا وقصر مدتها وآفاقها ليزهدوا فيها ويتركوا الإخلاد إليها ويرغبوا فيما أعد لهم في الآخرة من نعيمها المقيم وخيرها الدائم.

القسم الثامن : ما تضمنه من الأمر والنهي والتحليل والتحريم وبيان ما فيه طاعته ومعصيته وما يحبه من الأعمال والأقوال والأخلاق وما يكرهه ويبغضه منها وما يقرب إليه ويدني من ثوابه وما يبعد منه ويدني من عقابه وقسم هذا القسم إلى فروض فرضها وحدود حدها وزواجر زجر عنها وأخلاق وشيم رغب فيها.

القسم التاسع : ما عرفهم إياه من شأن عدوهم ومداخله عليهم ومكايده لهم وما يريده بهم وعرفهم إياه من طريق التحصن منه والاحتراز من بلوغ كيده منهم وما يتداركون به ما أصيبوا به في معركة الحرب بينهم وبينه وما يتبع ذلك.

القسم العاشر : ما يختص بالسفير بينه وبين عباده عن أوامره ونواهيه وما اختصه به من الإباحة والتحريم وذكر حقوقه على أمته وما يتعلق بذلك.

فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن"اهـ[1].

قال شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله: "ليعلم أن المعاني التي يشتمل عليها القرآن لا تخرج عن خمسة علوم :

١ - علم الأحكام : كالواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام ، سواء

---

(١) الصواعق المرسلة (٤ /٦٨٤).

كانت من قسم العبادات أو المعاملات ، أو الاجتماع أو السياسة المدنية. ويرجع تفصيل هذا العلم وشرحه إلى الفقيه.

٢ - علم الجدل : وهي المحاجة مع الفرق الأربع الباطلة ، اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين. ويرجع في شرح هذا العلم وتعريفه إلى المتكلم.

٣ - علم التذكير بآلاء الله : كبيان خلق السموات والأرض وإلهام العباد ما يحتاجون إليه ، وبيان الصفات الإلهية.

٤ - علم التذكير بأيام الله : وهو بيان تلك الوقائع والحوادث التي أحدثها الله - تعالى - إنعاماً على المطيعين ونكالا للمجرمين (كقصص الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - ومواقف شعوبهم وأقوامهم معهم).

٥ - علم التذكير بالموت وما بعد الموت : كالحشر والنشر والحساب والميزان ، والجنة والنار. ويرجع تفصيل هذه العلوم وبيانها وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها إلى الواعظ والمذكر.

وقد جاءت هذه العلوم في القرآن الكريم على طريقة العرب الأولين ، لا على منهج العلماء المتأخرين ، فلم يلتزم في آيات الأحكام ، منه ، طريق الإيجاز والاختصار كمؤلفي المتون الفقهية ، ولا طريق تنقيح الحدود والقيود ، كما يفعله الأصوليون.

وقد التزم في آيات الجدل والمخاصمة إيراد الأدلة المشهورة المسلمة، والبراهين الخطابية ، لا تنقيح البراهين ، وتقسيمها على طريقة المنطقيين.

ولم يراع في الانتقال من مقصد إلى آخر ، ومن موضوع إلى موضوع آخر ، تلك المناسبة ، التي يراعيها الأدباء المتأخرون ، بل ألقى على عباده ما رآه مهماً ،

سواء كان مقدماً أو مؤخراً"اهـ(١).

قال ابن عاشور رحمه الله: " أَلَيْسَ قَدْ وَجَبَ عَلَى الْآخِذِ فِي هَذَا الْفَنِّ أَنْ يَعْلَمَ الْمَقَاصِدَ الْأَصْلِيَّةَ الَّتِي جَاءَ الْقُرْآنُ لِتِبْيَانِهَا فَلْنُلِمَّ بِهَا الْآنَ بِحَسَبِ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ اسْتِقْرَاؤُنَا وَهِيَ ثَمَانِيَةُ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: إِصْلَاحُ الِاعْتِقَادِ وَتَعْلِيمُ الْعَقْدِ الصَّحِيحِ، وَهَذَا أَعْظَمُ سَبَبٍ لِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ يُزِيلُ عَنِ النَّفْسِ عَادَةَ الْإِذْعَانِ لِغَيْرِ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَيُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الْأَوْهَامِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْإِشْرَاكِ وَالدَّهْرِيَّةِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] فَأَسْنَدَ لِآلِهَتِهِمْ زِيَادَةَ تَتْبِيبِهِمْ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ فِعْلِ الْآلِهَةِ وَلَكِنَّهُ مِنْ آثَارِ الِاعْتِقَادِ بِالْآلِهَةِ.

الثَّانِي: تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ قَالَ تَعَالَى: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ [الْقَلَم: ٤] وَفَسَّرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا لَمَّا سُئِلَتْ عَنْ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنُ. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّأِ» بَلَاغًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ». وَهَذَا الْمَقْصِدُ قَدْ فَهِمَهُ عَامَّةُ الْعَرَبِ بَلْهَ خَاصَّةَ الصَّحَابَةِ، وَقَالَ أَبُو خِرَاشٍ الْهُذَلِيُّ مُشِيرًا إِلَى مَا دَخَلَ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ بِأَحْسَنِ تَعْبِيرٍ:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ
وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ... سِوَى الْعَدْلِ شَيْئًا فَاسْتَرَاحَ الْعَوَاذِلُ

---

(١) الفوز الكبير ص٢٩ – ٣١.

أَرَادَ بِإِحَاطَةِ السَّلَاسِلِ بِالرِّقَابِ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَالشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: "وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ".

الثَّالِثُ: التَّشْرِيعُ وَهُوَ الْأَحْكَامُ خَاصَّةً وَعَامَّةً. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النِّسَاء: ١٠٥] ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الْمَائِدَة: ٤٨] . وَلَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنُ جَمِيعَ الْأَحْكَامِ جَمْعًا كُلِّيًا فِي الْغَالِبِ، وَجزْئِيًا فِي الْمُهِمِّ، فَقَوْلُهُ: ﴿تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحْل: ٨٩] ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [الْمَائِدَة: ٣] الْمُرَادُ بِهِمَا! إِكْمَالُ الْكُلِّيَّاتِ الَّتِي مِنْهَا الْأَمْرُ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ : "لِأَنَّهُ عَلَى اخْتِصَارِهِ جَامِعٌ وَالشَّرِيعَةُ تَمَّتْ بِتَمَامِهِ وَلَا يَكُونُ جَامِعًا لِتَمَامِ الدِّينِ إِلَّا وَالْمَجْمُوعُ فِيهِ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ".

الرَّابِعُ: سِيَاسَةُ الْأُمَّةِ وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ فِي الْقُرْآنِ الْقَصْدُ مِنْهُ صَلَاحُ الْأُمَّةِ وَحِفْظُ نِظَامِهَا كَالْإِرْشَادِ إِلَى تَكْوِينِ الْجَامِعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] .

الْخَامِسُ: الْقِصَصُ وَأَخْبَارُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ لِلتَّأَسِّي بِصَالِحِ أَحْوَالِهِمْ قَالَ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ [يوسف:٣]، ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الْأَنْعَام: ٩٠] وَلِلتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَاوِيهِمْ قَالَ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٥] وَفِي خِلَالِهَا تَعْلِيمٌ. ...

السَّادِسُ: التَّعْلِيمُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَةَ عَصْرِ الْمُخَاطَبِينَ، وَمَا يُؤَهِّلُهُمْ إِلَى تَلَقِّي الشَّرِيعَةِ وَنَشْرِهَا وَذَلِكَ عِلْمُ الشَّرَائِعِ وَعِلْمُ الْأَخْبَارِ وَكَانَ ذَلِكَ مَبْلَغَ عِلْمِ مُخَالِطِي الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ زَادَ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ تَعْلِيمَ حِكْمَةِ مِيزَانِ الْعُقُولِ وَصِحَّةِ الِاسْتِدْلَالِ فِي أَفَانِينِ مُجَادَلَاتِهِ لِلضَّالِّينَ وَفِي دَعْوَتِهِ إِلَى النَّظَرِ، ثُمَّ نَوَّهَ بِشَأْنِ الْحِكْمَةِ فَقَالَ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [الْبَقَرَة: ٢٦٩] وَهَذَا أَوْسَعُ بَابٍ انْبَجَسَتْ مِنْهُ عُيُونُ الْمَعَارِفِ، وَانْفَتَحَتْ بِهِ عُيُونُ الْأُمِّيِّينَ إِلَى الْعِلْمِ، وَقَدْ لَحِقَ بِهِ التَّنْبِيهُ الْمُتَكَرِّرُ عَلَى فَائِدَةِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يَطْرُقْ أَسْمَاعَ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّمَا قُصَارَى عُلُومِهِمْ أُمُورٌ تَجْرِيبِيَّةٌ، وَكَانَ حُكَمَاؤُهُمْ أَفْرَادًا اخْتُصُّوا بِفَرْطِ ذَكَاءٍ تُضَمُّ إِلَيْهِ تَجْرِبَةٌ وَهُمُ الْعُرَفَاءُ فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وَقَالَ: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [الْقَلَم: ١] فَنَبَّهَ إِلَى مَزِيَّةِ الْكِتَابَةِ.

السَّابِعُ: الْمَوَاعِظُ وَالْإِنْذَارُ وَالتَّحْذِيرُ وَالتَّبْشِيرُ، وَهَذَا يَجْمَعُ جَمِيعَ آيَاتِ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وَكَذَلِكَ المُحَاجَّةُ وَالمُجَادَلَةُ لِلْمُعَانِدِينَ، وَهَذَا بَابُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ.

الثَّامِنُ: الْإِعْجَازُ بِالْقُرْآنِ لِيَكُونَ آيَةً دَالَّةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ إِذِ التَّصْدِيقُ

يَتَوَقَّفُ عَلَى دَلَالَةِ الْمُعْجِزَةِ بَعْدَ التَّحَدِّي، وَالْقُرْآنُ جَمَعَ كَوْنَهُ مُعْجِزَةً بِلَفْظِهِ وَمُتحَدَى لِأَجْلِهِ بِمَعْنَاهُ وَالتَّحَدِّي وَقَعَ فِيهِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يُونُس: ٣٨] وَلِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ مَدْخَلٌ فِي ظُهُورِ مُقْتَضَى الْحَالِ وَوُضُوحِهِ. هَذَا مَا بَلَغَ إِلَيْهِ اسْتِقْرَائِي وَلِلْغَزَّالِيِّ فِي «إِحْيَاءِ عُلُومِ» الدِّينِ بَعْضٌ مِنْ ذَلِكَ"اهـ[١].

وجميع هذه المعاني التي يشتمل عليها القرآن الكريم ترجع إلى ثلاثة معاني.

قال ابن العربي (ت٥٤٣هـ) رحمه الله: "والذي اختاره من هذا التقسيم في طريق البيان، وعليه أعول في طريق الإيراد قديماً، أن علومه (يعني:القرآن الكريم):

توحيد .

وتذكير .

وأحكام.

فقسم التوحيد فيه تدخل: معرفة المخلوقات بحقائقها، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ويدخل في علم التذكير : الوعد والوعيد، والحشر، وتصفية الباطن والظاهر عن أخلاق المعاصي.

ويدخل في الأحكام التكليف كله، من العمل في قسم النافع منه والضار، وحظ الأمر والنهي والندب.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٣٩ – ٤١) بتصرف يسير.

فالأول كقوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٦٣)، فركب عليه قسم التوحيد كله في الذات والصفات والأفعال.

والثاني : قسم التذكير، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٥٥). وهذا مخصوص بالعظة في المتعارض، متناول للكل في الحقيقة.

الثالث : قوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ (المائدة من الآية ٤٩).

كما ترجع علوم القرآن إلى آيتين:

كقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطَّلاق:١٢).

الثانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

وقد ترجع (يعني: علوم القرآن) إلى آية واحدة، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء:١٦).

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥).

ولذلك قال جماعة من العلماء في تفسير قوله : "﴿قل هو الله أحد﴾، أنها تعدل ثلث القرآن"[١]؛ في الأجر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، بَابُ فَضْلِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، حديث رقم (٥٠١٣)، ولفظه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ t : "أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ =

وقالت جماعة: تعدل ثلث القرآن في المعنى، لأن القرآن ثلاثة أقسام، كما قدمنا، فقسم التوحيد اشتملت عليه هذه السورة على الخصوص، وبهذا صارت الفاتحة أم الكتاب، لأن فيها الأقسام الثلاثة؛

فأما قسم التوحيد، فمن أولها إلى قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة:٤).

فأمّا قسم الأحكام فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة :٥).

ومن قوله: ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦) إلى آخرها تذكير.

فصارت بهذا أماً يتفرع عنها كل بنت.

وقيل : صارت أماً لأنها متقدمة عن القرآن بالقبلية، والأم قبل البنت.

وقيل: سميت فاتحة لأنها تفتح أبواب الجنة على وجوه بيانها في مواضعها، ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران:٧)."اهـ[١].

وهذه المقاصد الكلية لن يخرج هدف السورة، وغرضها الذي ترمي إليه بمواضيعها المتعددة، عن دخوله في واحد منها، سواء إذا قلنا بالمعاني العشرة على التفصيل، أو بالمقاصد الثلاثة على الإجمال.

=

جاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ^ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ^ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ".

(١) قانون التأويل ص٥٤١ – ٥٤٣.

الوحدة الموضوعية وترتيب سور القرآن الكريم

تقرير الوحدة الموضوعية للسورة يشترط فيه أن لا يأتي بغرض يفصل السورة عن سياقها في نظم ترتيب سور القرآن الكريم[١].

والقرآن العظيم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١).

أنزله الله عزوجل على رسوله r منجماً بحسب الأحداث والأسباب المختلفة المتنوعة، على مدى ثلاث وعشرين سنة، فمنه ما نزل في السفر، ومنه ما نزل في الحضر، ومنه ما نزل في النهار، ومنه ما نزل في الليل، ومنه ما نزل بمكة، ومنه ما نزل في المدينة.

تتنزل السورة كاملة تارة، وتارة آيات، وتارة آية، وتارة بعض آية[٢]؛ فيأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صحابته أن يكتبوا ما نزل، ويضعوه في موضعه، فما انتقل صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن مكتوب لدى الصحابة رضوان الله عليهم.

ويلاحظ أن القرآن العظيم لّما مات الرسول صلى الله عليه وآله مسلم لم يكن مجموعاً في محل واحد، إنما كان مجموعه عند مجموع الصحابة مكتوباً، فلما جُمع

---

(١) أمّا ترتيب الآيات داخل السورة فهو توقيفي، نقل الاجماع عليه غير واحد من أهل العلم.انظر تهذيب وترتيب الاتقان ص١٦٠.

(٢) فتح الباري (٩/ ٢٢).

في زمن أبي بكر الصديق t جمعت آياته وسوره المكتوبة أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلت آيات كل سورة على حدة[١]، وجمعت سور القرآن العظيم جميعها في محل واحد، وهو المصحف الذي كان عند أبي بكر t ثم من بعده عند عمر بن الخطاب t ثم من بعده عند حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها، وعُرف هذا المصحف بها، فقيل له: "مصحف حفصة".

فلما جاء عثمان بن عفان t نسخ مصحف حفصة رضي الله عنها، عِدَّة نسخ، ووزّعها على الأمصار الرئيسة في الدولة الإسلامية آنذاك. واقتصر في نسخه على حرف واحد: قراءة واحدة، وهي الموافقة للسان قريش.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: "أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ.

فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى!

فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ.

فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللهَّ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ.

وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٨).

شَيْءٍ مِنْ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ.

فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنْ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ"(١).

عن سويد بن غفلة قال: قال علي بن أبي طالب:

"يا أيها الناس: لا تغلوا في عثمان و لا تقولوا له إلا خيراً [أو قولوا له خيرا] في المصاحف واحراق المصاحف! فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً؛ فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك!! وهذا يكاد أن يكون كفراً! قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فُرقة، و لا يكون اختلاف. قلنا: فنِعْم ما رأيت. قال [فقيل]: أي الناس أفصح وأي الناس أقرأ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت. فقال: ليكتب أحدهما ويملي الآخر، ففعلا وجمع الناس على مصحف.

قال: قال علي: والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل"(٢).

قال الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ): "المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان وليس كذلك! إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن حديث رقم (٤٩٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص٢٩-٣٠، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٤٢). وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/١٨)، ومحقق شرح السنة (٤/٥٢٥).

على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لمّا خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأمّا قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن، فأمّا السابق إلى جمع الجملة فهو الصدِّيق. وقد قال علي: لو وليت لعملت بالمصاحف [الذي] عمل بها عثمان"اهـ[١].

وقال البغوي رحمه الله (ت٥١٦هـ) : "إن الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدّفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئا. ... فأمر [خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم] بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من غير أن قدّموا شيئاً أو أخروا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل صلوات الله عليه، إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السورة التي يذكر فيها كذا ...

فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيبه فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا أنزله الله تعالى جملة واحدة في شهر رمضان ليلة القدر إلى السماء الدنيا، كما قال سبحانه

---

(١) الاتقان في علوم القرآن (أبو الفضل١ / ١٧١-١٧٢).

وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة:١٨٥). ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١). ثم كان ينزله مفرقاً على رسوله صلى الله عليه وسلم مُدّة حياته عند الحاجة، وحدوث ما يشاء الله عزوجل، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ (الإسراء:١٠٦)؛ فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة.

وكان هذا الاتفاق ن الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة، رحمة من الله عزوجل على عباده وتحقيقاً لوعده في حفظه، كما قال الله عزوجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

ثم إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يقرؤون القرآن بعده على الأحرف السبعة، التي أقرأهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإذن الله عزوجل، إلى أن وقع الاختلاف بين القراء في زمن عثمان، وعظم الأمر فيه، وكتب الناس بذلك من الأمصار إلى عثمان، وناشدوه الله تعالى في جمع الكلمة، وتدارك الناس قبل تفاقم الأمر.

وقدم حذيفة بن اليمان من غزوة أرمينية فشافهه بذلك، فجمع عثمان عند ذلك المهاجرين والأنصار، وشاورهم في جمع القرآن في المصاحف على حرف واحد، ليزول بذلك الخلاف، وتتفق الكلمة، واستصوبوا رأيه، وحضوه عليه، ورأوا أنه من أحوط الأمور للقرآن، فحينئذ أرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، فأرسلت إليه، فأمر زيد بن ثابت والرهط

القرشيين الثلاثة فنسخوها في المصاحف، وبعث بها إلى الأمصار[١]."اهـ[٢].

ولعلك بعد هذا العرض تعلم أن ترتيب سور القرآن العظيم على هذا النحو ترتيب توقيفي، إذ ليس في خبر جمع القرآن ما يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم غيّروا أو بدلوا، بتقديم أو تأخير شيء من المصحف الذي جمعوه، و ألّفوه على ترتيب واحد من البداية[٣].

قال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: "إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في كتابه فضائل القرآن ص٢٠.: "وهذا أيضاً من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة. وإنما روي عن عبدالله بن مسعود شيء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف، وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرق ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق، حتى قال علي بن أبي طالب: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة الأربعة: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، على أن ذلك من مصالح الدين. وهم الخلفاء الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي"."اهـ

(٢) شرح السنة (٤/٥٢١-٥٢٣).

(٣) أمّا حديث ابن عباس: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطراً : "بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فما حملكم على ذلك؟ ..." الحديث ؛ فإنه حديث ضعيف جداً، وألفاظه منكره. قال العلامة أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (١/٣٢٩-٣٣١ تحت رقم ٣٩٩) عن هذا الحديث: "لا أصل له". تنبيه : في مسألة ترتيب سور القرآن أقوال أخرى، انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٢٦٠)، الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (أبو الفضل١/١٧٦).

يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"[١].

قال تاج القراء الكرماني (ت في حدود ٥٠٥هـ) رحمه الله: "أول الْقُرْآن سُورَة الْفَاتِحَة ثمَّ الْبَقَرَة ثمَّ آل عمرَان على هَذَا التَّرْتِيب إِلَى سُورَة النَّاس وَهَكَذَا هُوَ عِنْد الله فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ وَهُوَ على هَذَا التَّرْتِيب كَانَ يعرضه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام على جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام كل سنة، أَي مَا كَانَ يجْتَمع عِنْده مِنْهُ وَعرضه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام فِي السّنة الَّتِي توفى فِيهَا مرَّتَيْنِ وَكَانَ آخر الْآيَات نزولا ﴿وَاتَّقوا يَوْمًا ترجعون فِيهِ إِلَى الله﴾ فَأمره جِبْرِيل أَن يَضَعهَا بَين آيَتي الرِّبَا وَالدّين.

وَذهب جمَاعَة من الْمُفَسّرين إِلَى أَن قَوْله فِي هود: ﴿فَأتوا بِعشر سور مثله﴾ مَعْنَاهُ مثل الْبَقَرَة إِلَى هود وَهِي الْعَاشِرَة وَمَعْلُوم أَن سُورَة هود مَكِّيَّة وَأَن الْبَقَرَة وَآل عمرَان وَالنِّسَاء والمائدة والأنفال وَالتَّوْبَة مدنيات نَزَلْنَ بعْدهَا.

وَفسّر بَعضهم قَوْله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل:٤) أَي اقرأه على هَذَا التَّرْتِيب من غير تَقْدِيم وَتَأْخِير وَجَاء النكير على من قَرَأَهُ معكوسا.

وَلَو حلف إِنْسَان أَن يقْرَأ الْقُرْآن على التَّرْتِيب لم يلْزمه إِلَّا على هَذَا التَّرْتِيب وَلَو نزل جملَة كَمَا اقترحوا عَلَيْهِ بقَوْلهمْ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢)، لنزل على هَذَا التَّرْتِيب وَإِنَّمَا تَفَرَّقت سوره وآياته نزولا لحَاجَة

---

(١) المقنع للداني ص١٨، المرشد الوجيز ص٤٦، وانظر روح المعاني (١/ ٢٣)، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ص٧١-٧٣.

النَّاس حَالَة بعد حَالَة وَلِأَن فِيهِ النَّاسِخ والمنسوخ وَلم يَكُونَا ليجتمعا نزولا.

وأبلغ الحكم فِي تفرقه مَا قَالَه سُبْحَانَهُ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء:١٠٦)، وَهَذَا أصل تنبني عَلَيْهِ مسَائِل وَالله أعلم"اهـ[١].

(١) الْبُرْهَان فِي متشابه الْقُرْآن لما فِيهِ من الْحجَّة وَالْبَيَان ص٦٩.

الوحدة الموضوعية ليست بتفسير

ليس في عرض الوحدة الموضوعية آلية تفسير، بل لا يتم الوقوف على الوحدة الموضوعية للسورة إلا بمعرفة معانيها؛ فهي خطوة تالية للتفسير.

وقد صدرت كتب بعنوان الوحدة الموضوعية في سورة كذا، يستعرض فيها المؤلف أغراض السورة، والآيات الدالة عليها، مع ذكر معاني السورة الإجمالية، متلمساً من ذلك الوقوف على المحور الأساس، والوحدة الموضوعية للسورة.

وهذا الواقع يؤكد ما ذكرته من أن الوحدة الموضوعية للسورة ليست آلية يتوصل منها أو بها إلى تفسير آيات القرآن الكريم.

والناظر فيها يحتاج إلى معرفة معاني السورة وأغراضها، ولو طالع الكتب المصنفة في ذلك لأغنته.

كما يحتاج إلى أن يتثبت من اسم السورة التوقيفي.

ويحتاج أن يتأمل نظم الآيات والكلمات المتكررة فيها.

كما يحتاج إلى أن يتأمل ترتيب السورة في نظم ترتيب سور القرآن، وما يمكن أن يضيفه ذلك من توضيح هذا المعنى الرابط والفلك الدائر الذي ترمي إليه السورة بأغراضها المتنوعة.

وكذا ما يتعلق بالمناسبات الداخلية والخارجية للسورة، فإن هذا معين على الوصول إلى ذلك الغرض الذي تهدف إليه السورة.

الوحدة الموضوعية و التفسير الموضوعي

قال أمين الخولي (ت١٩٦٦م) رحمه الله، - وهو أول من نظّر للتفسير الموضوعي من المتأخرين - : "فصواب الرأي - فيما يبدو – أن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً، لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم سوراً وقطعاً ، ثم إن كانت للمفسر نظرة في وحدة السورة وتناسب آيها واطراد سياقها فلعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفي للموضوعات المختلفة"اهـ(١).

وذكر محمد محمود حجازي رحمه الله، في رسالته التي بعنوان: "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم"، أن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، لها الدعامات التالية:

الأولى : تكرار الموضوع الواحد في القرآن.

الدعامة الثانية : ذكر الموضوع غير تام في السورة .

الدعامة الثالثة : كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها من جميع السور التي تكرر فيها الموضوع .

الدعامة الرابعة : عدم كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورة ذكر فيها الموضوع .

فأشار بذلك إلى أن التفسير الموضوعي غير الوحدة الموضوعية للسورة، فكل سورة لها هدف وغرض تسعى لتحقيقه.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٥/ ٣٦٨).

وقال الكومي والقاسم رحمهما الله: "وإذا ما أطلقت كلمة: تفسير موضوعي" فلا يفهم منها إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه"اهـ(١).

وقال عبدالستار فتح الله سعيد حفظه الله: "علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"(٢).

فهؤلاء هم أساطين التفسير الموضوعي في بدايته، لم يجعلوا الوحدة الموضوعية للسورة من مقاصد التفسير الموضوعي.

وسلك آخرون سبيل إدراج الوحدة الموضوعية في السورة ضمن مقاصد التفسير الموضوعي، بجامع الموضوع فيهما، فالوحدة الموضوعية تكون في السورة، بأن ترد مواضيعها المتعددة إلى موضوع محور يجمعها، والوحدة الموضوعية تكون في الموضوع تجمع آياته من جميع القرآن الكريم.

والمسلك الأول عندي أوضح وأنهج سبيلاً.

---

(١) التفسير الموضوعي للشيخ الكومي والقاسم ص٢٣ .

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي ص٢٠.

الوحدة الموضوعية للسورة ووالتناسق الموضوعي والمناسبات

الوحدة الموضوعية لسورة يقصد منها: أن يسعى المفسر إلى بيان الموضوعات التي تضمنتها الآيات. ومن ثم الربط بينها، بذكر المعنى الذي يجمع بينها، والتي تكون تارة معنوية، وتارة لفظية؛

فالأول كمقابلة الخير بالشر، وكقرن الترهيب بالترغيب، بعلاقة التضاد.

والثاني مثل أن تعطف الآية على الآية، أو أن تقع الآية موقع البيان مما قبلها، أو الحال، أو نحو ذلك.

ثم إيجاد الموضوع المحوري الذي تهدف إليه السورة.

ومناسبات القرآن العظيم هي : "علل ترتيب أجزائه بعضها ببعض"(١).

أو هي: "المعنى الذي يربط بين سوره وآياته"(٢).

والعلل هي المعاني التي تصلح أن تكون رابطة بين الآية والآية، والسورة والسورة.

وقد تضمن هذا التعريف الإشارة إلى أنواع المناسبات، وهي التالية:

القسم الأول: المناسبات الداخلية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبات ترتيب آيات السورة الواحدة، وتعلق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

---

(١) انظر نظم الدرر (١/ ٥).

(٢) انظر الإتقان (أبو الفضل٣/ ٣٢٣).

الثاني: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الثالث: مناسبة ختام السورة لمطلعها.

الرابع: مناسبة فواصل الآي للآية التي ختمت بها، ومنه مناسبة أسماء الله الحسنى للآية التي ختمت بها.

الخامس : مناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر.

القسم الثاني: المناسبات الخارجية، وهي الأنواع التالية:

الأول: مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

الثاني: مناسبة ختام السورة لمطلع السورة التالية لها .

الثالث: مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها.

الرابع : مناسبة موضوع مجموعة من السور لمجموعة من السور، أو لسورة.

فمثلا: الفاتحة أم الكتاب؛ لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف وبقراءتها في الصلاة قبل السورة، ولأن الأم مبدأ الولد، أو لأن الفاتحة أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن العظيم، وما فيه من العلوم والحكم؛ لأن أم الشيء أصله[1].

وهذا التقرير فيه إشارة إلى معنى يربط بين الفاتحة وسائر سور القرآن العظيم، فهنا مناسبة سورة لمجموع سور القرآن.

---

(١) فتح الباري (١٥٦/٨) ، قطف الأزهار (ل٣/ب).

مثال آخر: ما جاء عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"(١).

فهذا الحديث فيه بيان معنى يربط بين آية واحدة وسائر آي القرآن العظيم.

مثال آخر: الآيات من آية رقم (١)، إلى الآية رقم (٢٠) من سورة البقرة تعتبر المقدمة بالنسبة لمحتوى السورة، حيث وصف القرآن بما هو أهله، ووصف متبعيه ومخالفيه كلا بما يستحقه.

ثم يأت المقصد الأول من آية رقم (٢١- ٢٥)، في دعوة الناس كافة إلى الإسلام.

ثم يأت المقصد الثاني من آية رقم (٤٠-١٦٢)، في دعوة أهل الكتاب، دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

ثم يأت المقصد الثالث من آية رقم (١٧٨-٢٨٣)، في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

ثم يأت المقصد الرابع في آية واحدة وهي رقم (٢٨٤)، في ذكر الوازع

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم (٨١٠).

والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

ثم تأت الخاتمة في آيتين اثنتين هما رقم (٢٨٥-٢٨٦)، في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في عاجلهم وآجلهم.

أمّا الآيات من (٢٦-٣٩)، الواقعة بين المقصد الأول والثاني، فقد كان الحديث فيها عوداً على بدء.

والآيات من (١٦٣-١٧٧)، كانت مدخلاً للمقصد الثالث.

ها أنت ترى مدى التناسب بين مقاطع أطول سورة في القرآن العظيم(١)، فهنا مناسبة بين مجموعة آيات ومجموعة أخرى داخل سورة واحدة.

وهذا النوع اعني مناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر، وترتيب ذلك في السورة، هو المعبر عنه بـ(التناسق الموضوعي في السورة القرآنية).

فإن زاد المفسر على ذلك ونظر المفسر فيما يرمي إليه هذه الترتيب، والغاية التي ينتهي إليها، والمحور الذي تدور عليه موضوعات السورة ويجمعها، فهذا هو المعبَر عنه بـ (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية)؛ إذ هو الهدف والمحور الأساس الذي تندرج موضوعات السورة فيه على ترتيبها.

فالوحدة الموضوعية لسورة يقصد منها: أن يسعى المفسر إلى بيان الموضوعات التي تضمنتها الآيات، ومن ثم الربط بينها، بذكر المعنى الذي يجمع بينها، والتي تكون تارة معنوية، وتارة لفظية؛ ومن ثمَّ إيجاد

---

(١) وقد فصّل في بيان ذلك وتقريره صاحب كتاب "النبأ العظيم" ص١٦٣-٢١١.

الموضوع المحوري الذي تهدف إليه السورة.

فالربط المعنوي كمقابلة الخير بالشر، وكقرن الترهيب بالترغيب، بعلاقة التضاد.

والربط اللفظي مثل أن تعطف الآية على الآية، أو أن تقع الآية موقع البيان مما قبلها، أو الحال، أو نحو ذلك.

ومما تقدم يظهر أن التناسق الموضوعي للسورة بعض المناسبات.

والتناسق الموضوعي بوابة الوحدة الموضوعية للسورة.

ومما يعين في تحرير المحور الأساس للسورة الوقوف على وجه ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم، وهو من المناسبات الخارجية، وكذا مع ما قبلها وما بعدها، كما يعين في ذلك معرفة وجه الربط بين هذه الموضوعات التي تضمنتها السورة.

فإن قيل : كيف تكون الوحدة الموضوعية من المناسبات، وعباراتهم تدل على أنها مما يرشد ويعين على معرفة المناسبات، وهذا يقتضي أن غرض السورة غير المناسبة.

قال محمد بن أحمد الملوي (ت٧٧٤هـ) رحمه الله: "الذي ينبغي في كل آية: أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة. ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم.

وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها **وما سيقت له**"اهـ[(١)].

وقال أبوالفضل محمد البجائي المالكي (ت٨٦٥هـ)، وهو من شيوخ البقاعي رحمهما الله، ونقل هذا عنه: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر **الغرض الذي سيقت له السورة.**

وتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات.

وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب.

وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم **مفصلاً بين آية وآية، في كل سورة** والله الهادي"اهـ[(٢)].

قال البقاعي (ت٨٨٥هـ) رحمه الله متحدثاً عن المناسبات في القرآن العظيم: "وتتوقف الإجادة فيه على **معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها**، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها"اهـ[(٣)]؟

فالجواب : إن تطلب أغراض السورة وموضوعاتها، في حقيقته تطلب للمناسبة بين مقاطع موضوعات السورة حتى يتوصل بذلك إلى معرفة المناسبة

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٧).

(٢) نظم الدرر (١/ ١١)، وانظر الإتقان (أبوالفضل٣/ ٣٢٧-٣٢٨) فقد نقل هذا الكلام بعينه وقال: "قال بعض المتأخرين".

(٣) نظم الدرر (١/ ٥).

بين الآيات داخل المقطع. فهو من المناسبات من هذا الوجه.

وحيث إن الكلام عن المناسبات قد كتب فيه، وسجل في كتب التفسير، والكلام عن مقاصد السور أفرد في مصنفات، ويأتي في بعض كتب التفسير، بخلاف الكلام على المحور الأساس (= الوحدة الموضوعية) للسورة، فإنه لم يفرد بالتصنيف، و لا تجد فيه إلا إشارات، وقد تجده في كتاب (نظم الدرر) للبقاعي ولكن بتعب؛ فإن معرفة المناسبات في هذه الحالة تعين على الوقوف على الغرض الذي سيقت له السورة. ولا يخرج ذلك عن أنه من علم المناسبات كما ترى.

ويرشح لك هذا إذا تذكرت أن غرض الآيات أو السورة يدل عليه أسباب النزول، وهذا مما يعين في معرفة مقصود الآيات أو السورة المطلوب إبراز المناسبات فيها، وهذا أمر خارج عن المناسبة و له تأثيره فيها، فكذا الوحدة الموضوعية ترشد إلى معرفة المناسبات، ومعرفة ترتيب موضوعات السورة، وأغراض الآيات فيها يرشد إلى معرفة الغاية التي ترمي إليها، والهدف الذي سيقت له، وهذا الوحدة الموضوعية في السورة.

وعليه فإن العلاقة بين الوحدة الموضوعية والمناسبات علاقة فيها تداخل، فمعرفة المناسبات تعين على معرفة المقصد الذي سيقت له، وهو المحور الأساس للسورة، والعكس صحيح، فإن معرفة الغرض الذي سيقت له يعين على معرفة المناسبات.

ويتحرر مما سبق :

- أن علم المناسبات هو الدائرة الكبرى التي يدخل تحتها دائرة التناسق الموضوعي.

- أن دائرة التناسق الموضوعي يندرج تحتها دائرة الوحدة الموضوعية.
- أن كل تناسق موضوعي هو مناسبات.
- أن كل وحدة موضوعية هي تناسق موضوعي.
- أن كل وحدة موضوعية هي مناسبات.
- ليس كل مناسبات تناسق موضوعي.
- ليس كل مناسبات وحدة موضوعية.

الوحدة الموضوعية والتفسير الإجمالي

يقصد بالتفسير الإجمالي أن يسعى المفسر إلى بيان المعنى الكلي للآيات، بحيث يوضح موضوعها ، والغرض الذي سيقت من أجله، فلا يخوض في معنى ألفاظ الآية لفظة لفظة، و لا ينظر في معاني الألفاظ بعد التركيب، و لا في دلالات الألفاظ في الإفراد والتركيب على المعنى الذي سيقت من أجله، كما هو الشأن في التفسير التحليلي.

والتفسير ببيان المعنى الإجمالي للآيات يقترب كثيراً من بيان الوحدة الموضوعية للسورة، بل لقد استعمل تحت عنوان (التفسير الموضوعي لسورة كذا)، أو (الوحدة الموضوعية لسورة كذا)، فتجد المفسر يستعرض معاني الآيات إجمالياً، ثم أخذ يربط بين هذه المعاني، ويتلمس المحور الأساس أو الوحدة الموضوعية التي تجمع الموضوعات المتعددة في السورة القرآنية الواحدة.

والفرق بين التفسير الإجمالي والوحدة الموضوعية للسورة، أن المفسر للسورة إجمالياً، ليس من مقاصده الأساسية بيان المحور الأساس الذي يجمع موضوعات السورة، وليس من مقاصده إيجاد الترابط بين هذه الموضوعات، في وحدة موضوعية للسورة؛ فهو يقتصر على ذكر المعنى الإجمالي للآيات في السورة، والتعليق عليها، قد يكون ذلك على سبيل آية آية، وقد يكون ذلك عن طريق مقطع مقطع، المهم أنه لا يهدف إلى بيان الموضوعات التي تشمل عليها السورة في وحدة موضوعية، و لا يسعى إلى استنباط المحور الأساس الذي يجمع أطرف موضوعات السورة.

و لا تحتاج الوحدة الموضوعية للسورة إلى الاستعانة بطرق التفسير الأخرى؛

فلا يحتاج من يتكلم عن الوحدة الموضوعية إلى التفسير التحليلي.

و لا إلى التفسير المقارن.

و لا إلى التفسير بالمأثور.

نعم ذلك يساعده على التدقيق، والوصول إلى عبارة تحمل المعنى بعمق ودقة أكثر.

الوحدة الموضوعية للسورة واسم السورة

إن أسماء السور في جملتها ثبتت بالتوقيف على الراجح[١].

وهـذا يقتـضي أن في اسـم الـسورة مـن الحكمـة مـا يلـزم منـه التناسـب مـع محتواها، ولعل أهم ذلك الإشارة إلى المحور الأساس فيها.

وقد قال الزركشي رحمه الله: "ينبغى النظر في وجه اختصاص كل سورة بـما سميت به .

ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من المسميات:

أخذ أسمائها من نادر .

أو مستغرب يكون في الشيء من خلق .

أو صفة تخصه .

أو تكون معه أحكم .

أو أكثر .

أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى .

ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها.

وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز[٢]؛

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (أبوالفضل ١/ ١٥٠).

(٢) ينبغي أن يقال: أن للقرآن الكريم خصوصيته، فالتسمية فيه مع جميع هذه الأمور التي تراعى فيها، إلا أن في القرآن العظيم، من تناسب الاسم للسورة ، ما يجعل له من المعنى ما يليق بخصوصية القرآن الكريم، لأن الاسم جاء بتوقيف من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ومراعاة =

كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينه ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها.

وسميت سورة النساء بهذا الاسم؛ لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء.

وتسمية سورة الأنعام؛ لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا﴾ إلى قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾ لم يرد في غيرها.

كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء .

وكذا سورة المائدة؛ لم يرد ذكر المائدة في غيرها، فسميت بما يخصها.

فإن قيل : قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، فلم تختص باسم هود وحده؟ وما وجه تسميتها به وقصة نوح فيها أطول و أوعب؟

قيل : تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها، ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام كتكرره في هذه السورة فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربعة مواضع، والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا.

وإن قيل : فقد تكرر اسم نوح في هذه السورة في ستة مواضع فيها، وذلك

=

موضوع السورة ومحورها، ينطق بالتناسب، والله اعلم.

أكثر من تكرار اسم هود؟

قيل : لما جردت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها، فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه عليه السلام، من سورة تضمنت قصته وقصة غيره وأن تكرر اسمه فيها، أما هود فكانت أولى السور بأن تسمى باسمه عليه السلام.

واعلم أن تسمية سائر سور القرآن يجرى فيها من رعى التسمية ما ذكرنا"اهـ[١] .

قال السيوطي رحمه الله معقباً: "ولك أن تسأل فتقول: قد سميت سور جرت فيها قصص أنبياء بأسمائهم كسورة نوح وسورة هود وسورة إبراهيم وسورة يونس وسورة آل عمران وسورة طس سليمان وسورة يوسف وسورة محمد وسورة مريم وسورة لقمان وسورة المؤمن .

وقصة أقوام كذلك كسورة بني إسرائيل وسورة أصحاب الكهف وسورة الحجر وسورة سبأ وسورة الملائكة وسورة الجن وسورة المنافقين وسورة المطففين، ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن حتى قال بعضهم: كاد القرآن أن يكون كله موسى، وكان أولى سورة أن تسمى به سورة طه أو القصص أو الأعراف لبسط قصته في الثلاثة ما لم يبسط في غيرها.

وكذلك قصة آدم ذكرت في عدة سور ولم تسم به سورة كأنه اكتفاء بسورة الإنسان.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١ / ٢٧١).

وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص، ولم تسم به سورة الصافات.

وقصة داود ذكرت في (ص) ولم تسم به.

فانظر في حكمة ذلك !

على أني رأيت بعد ذلك في (جمال القراء) للسخاوي: أن سورة طه تسمى سورة الكليم[١]، وسماها الهذلي في (كامله): سورة موسى. وأن سورة (ص) تسمى سورة داود[٢].

ورأيت في كلام الجعبري : أن سورة الصافات تسمى سورة الذبيح .

وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر"اهـ[٣].

فهناك علاقة بين اسم السورة ومحتواها، قد تساعد على معرفة الغرض الأساس الذي سيقت له جميع موضوعاتها.

وقد قال البقاعي رحمه الله بعد ذكره لكلام شيخه البجائي السابق ذكره: "وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب: أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه: عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها"اهـ[٤] .

---

(١) جمال القراء (١/ ١٩٩).

(٢) جمال القراء (١/ ٢٠٠).

(٣) الاتقان (أبوالفضل ١/ ١٦١)

(٤) نظم الدرر (١/ ١١ – ١٢).

الوحدة الموضوعية للسورة وعناصر الدرس التفسيري

عناصر الدرس التفسير ، هي التالية:

بيان اسم السورة التوقيفي، والاجتهادي.

بيان مكية السورة أو مدنيتها، أو ما فيها من آيات مدنية إذا كانت مكية والعكس.

ذكر سبب النزول.

بيان وجه ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها.

بيان وجه مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

بيان وجه مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها.

بيان مناسبة فاتحة السورة لموضوعها.

بيان أغراض السورة وموضوعاتها.

بيان ما ورد في فضائل السورة.

ثم ذكر معاني الآيات .

مع مراعاة الربط بين كل آية وآية.

مع مراعاة الربط بين كل مقطع ومقطع من السورة.

ثم ذكر الاستنباط.

فأين من هذه العناصر يقع الكلام عن الوحدة الموضوعية للسورة؟

الذي يظهر أن محلها عند الكلام في أول تفسير السورة، عن المناسبات، والمفسر عليه أن يقدم ما يتوقف عليه فهم غيره، فإن توقف ذلك على المناسبات

قدم المناسبات ثم الوحدة الموضوعية، والعكس بالعكس.

والعناية بذلك من مهمات التفسير.

وقد قال الزركشي رحمه الله في كلام له عن أيهما يذكر أولاً سبب النزول أو المناسبة: " واعلم أنه جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول ووقع البحث أيما أولى البداءة به بتقدم السبب على المسبب أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام وهى سابقة على النزول والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفا على سبب النزول كالآية السابقة في الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة"اهـ[1].

والحال كذلك في الوحدة الموضوعية للسورة، والله الموفق.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٤).

أمور معينة على تلمس الوحدة الموضوعية للسورة

بالنظر إلى ما تقدم ذكره، فإن للوحدة الموضوعية دعامات تقوم عليها :

الدعامة الأولى : أن ترتيب الآيات في السورة توقيفي.

الدعامة الثانية : أن اسم السورة توقيفي.

الدعامة الثالثة : أن ترتيب السور توقيفي.

الدعامة الرابعة : المناسبات في آي وسور القرآن الكريم.

الدعامة الخامسة : تعيين أغراض السورة والربط بينها.

الدعامة السادسة : تقرير المقاصد الكلية للقرآن الكريم.

الدعامة السابعة : نزول السورة وما حف بها من أسباب، ومكي ومدني، وترتيب.

ويأتي مع هذا ملاحظة ما يتكرر في السورة من ألفاظ وجمل؛ فإن مما يعين على الوقوف على الوحدة الموضوعية للسورة أو محورها الأساس، النظر في ألفاظ السورة، وما تكرر منها، فإن تكرار كلمة معينة يشعر بأن لها من الدلالة ما ينبغي إعطاءها المزيد من النظر والتأمل، وتدبر المعاني التي جاءت بها في الآيات الكريمات. وبالتالي فإن هذا فيه إشارة إلى معنى قد يعين في معرفة الغرض الذي سيقت الموضوعات في السورة من أجل الدلالة عليه. ومن ذلك تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرَّحمن:١٦). وتكرار قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات:١٩).

خطوات الوصول إلى الوحدة الموضوعية للسورة

الخطوة الأولى: الوقوف على أغراض السورة من أكثر الأشياء معونة للمفسر إذا أراد الكشف عن ترابط الآيات؛ إذ السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقتضي أن تعرض السورة عرضاً واحداً يرسم به خط سيرها إلى غايتها ويبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملته، لكي يُرى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى[١]. وذلك أن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوّله، وأوّله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وأنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية[٢].

واهتم المفسرون بذكر أغراض سور القرآن سورة سورة أثناء التفسير، وصنفوا في ذلك مصنفات مفردة، ومن ذلك:

- البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، (ت٧٠٨هـ) رحمه الله[٣].

---

(١) انظر النبأ العظيم ص١٥٨-١٥٩.

(٢) انظر الموافقات (٣/٤١٢-٤١٦).

(٣) والكتاب مطبوع في مجلد، طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، بدراسة وتحقيق محمد شعباني، عام ١٤١٠هـ، قال أبو جعفر في مقدمته (ص١٨٠ – ١٨١): "وإني تأملت منها - بفضل الله - وجوه ارتباطاته وتلاحم سوره وآياته إلى ما يلتحم مع هذا القبيل عجائب

=

- كتاب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ). فقد تكلم فيه عن ما اشتملت عليه السورة من المقاصد. وهذا في المجلد الأول منه[١].

- وكتاب "مصاعد الفكر في مقاصد السور" للبقاعي (ت٨٨٥هـ)[٢]. وقد ذكر ذلك البقاعي في كتابه "نظم الدرر" وله عليه زيادات.

وغالبية من كتب في التفسير من المتأخرين، صدر السور بذكر أغراضها ومضامينها[٣] .

الخطوة الثانية : معرفة المناسبات الداخلية للسورة.

الخطوة الثالثة : معرفة المناسبات الخارجية للسورة، وقد تقدم تفصيل القول في العلاقة بين المناسبات والوحدة الموضوعية.

=

شواهد التنزيل فعلقت في ذلك ما قدر لي، ثم قطعت بي قواطع الأيام عن تتميم رومي من ذلك وعملي، فاقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على توجيه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب شيئا لمن تقدم وغبر، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح، ومجال الكلام فيه أفسح وأسرح. أما تعلق السور على ما ترتب في الإمام، واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم، فإن صلى أحد بعد فهذه الإقامة، أو أتمَّ فمرتبط حتما بهذه الإمامة"اهـ

(١) والكتاب مطبوع في ٦ مجلدات، تحقيق محمد النجار، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) وهو مطبوع، في ثلاثة مجلدات، بتحقيق د. عبدالسميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

(٣) ومن مصنفات المتأخرين في هذا الباب: "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" لمحمد الغزالي السقا رحمه الله. "إيجاز البيان في سور القرآن" لمحمد علي الصابوني سلمه الله.

الخطوة الرابعة : الاستهداء باسم السورة في معرفة ما سيقت له. وتقدم ما يتعلق به.

الخطوة الخامسة : الاسترشاد بما ورد في فضل السورة لمعرفة محورها الذي تدور عليه.

الخطوة السادسة : النظر في نزول السورة وما حف به من أسباب نزول، وترتيب نزول، والمكي والمدني.

الخطوة السابعة : النظر فيما تكرر في السورة من جمل وكلمات، فإنها تهدي إلى معرفة الغرض الذي سيقت له.

وليس المقصود مجرد ذكر ذلك، إنما المقصود توظيف هذه المعلومات من أجل الوصول إلى هدف السورة ومحورها ومقصدها الذي سيقت له.

ومن أهم الأمور المعينة ملاحظة المقاصد الكلية للقرآن الكريم، ومحل السورة منها، فإن ذلك يسدد ويهدي بإذن الله إلى معرفة المقصد الذي سيقت السورة له.

الخاتمة :

انتهت هذه الدراسة إلى تحرير الأمور التالية:

- تمييز التفسير الموضوعي عن الوحدة الموضوعية للسورة.
- تعريف التفسير الموضوعي.
- أن التفسير الموضوعي طريقة عرض وليست بآلية تفسير.
- أن عرض معاني الآيات على أساس الموضوع، عرف قديماً، ولعل من أقدم من صنف فيه، تلك المصنفات المفردة في موضوع معين من موضوعات القرآن الكريم، كمن أفرد موضوع الجهاد، أو موضوع الصلاة أو موضوع الطهور، ونحو ذلك، وكتاب الطحاوي المتوفى (٣٢١هـ) في أحكام القرآن الكريم تطبيق عملي واضح.
- أوضح من تكلم على قضية ترتيب التفسير على الموضوعات وما يتعلق به، ابن العربي في كتابه (قانون التأويل) لما تعرض لترتيب مجالس التفسير له التي عنوان (أنوار الفجر في مجالس الذكر).
- أول وقت ظهر فيه مصطلح التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية، هو في بداية القرن الثالث عشر.
- جملة من محاذير التفسير الموضوعي.
- تعريف الوحدة الموضوعية.
- تداخل الوحدة الموضوعية مع علم المناسبات والتفسير الإجمالي، والتفسير الموضوعي.
- الوحدة الموضوعية ليست آلية تفسير.
- التفسير الإجمالي من أكثر أنواع التفسير التصاقاً بالوحدة

الموضوعية للسورة.

- لتطلب الوحدة الموضوعية ضوابط لابد من مراعاتها.
- من الأمور المعينة على معرفة الوحدة الموضوعية للسورة اسمها التوقيفي، ومعرفة المقاصد الكلية للقرآن الكريم، ومعرفة مكية السورة أو مدنيتها، ومناسباتها الداخلية والخارجية، والألفاظ التي اختصت بها السورة، وتكررت فيها، وأغراضها وموضوعاتها.

هذا مجمل ما حررته هذه الدراسة، التي اسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقني فيها القبول في الدنيا والآخرة، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.